روايات عبير
ليليان بيك
خذ الحب واذهب!

١ - الابن والأب

قالت جوزفين نيويل لابنتها:

«ولكن يا حبيبتي، انه يكبرك كثيراً بل هو في الحقيقة أكبر مني».

فردت عليها ماريتا وهي تبتسم وتغلق حقيبة سفرها:

«استمري يا أماه، وأكملي كلامك وقولي ان عمره يقارب أن يكون زوجاً لك».

ثم لفت ذراعيها حول عنق أمها وقبلتها على خدها الخالي من التجاعيد وهي تقول:

«أرجو ان تفهمي أن لا شيء هناك بيننا على الاطلاق».

ردت عليها جوزفين قائلة وهي تقطب جبينها قلقاً:

«اذن بماذا تفسرين هذه الدعوة لقضاء اجازة الصيف معه؟»

ولم تتمكن ماريتا أيضاً من الاجابة على هذا السؤال. فقد كانت مندهشة كوالدتها تماماً. فهزت كتفيها وقالت:

«لأنني أعمل في القسم الذي يرأسه»

«ولكنك لابد أن تعترفي بأنك عضو صغير بالقسم. كما أن مجرد مساعدة في العمل لا يعد مركزاً مهماً في السلم الوظيفي للجامعة».

فتنهدت ماريتا وقالت:

«اعترفت من زمان بذكائي المحدود».

ولكن جوزفين ردت تقول:

«يا حبيبتي الذنب ليس ذنبك لتركك المدرسة قبل إتمام امتحاناتك فلولا وفاة

والدك...»

«لكنت أصبحت في القمة يا أمي العزيزة... سمعت هذا الكلام من قبل، وأعدك بأن ألتحق بالدراسات الليلية في الفصل الدراسي المقبل واجهد لاكمل ما بدأته من دراستي».

فقالت الأم وهي تقطّب ثانية:

«ماريتا... بلغت الرابعة والعشرين ولن يمضي وقت طويل قبل أن...»

ضحكت ماريتا وأكملت الكلام تقول:

«أتزوج؟ ليس هناك من أفكر فيه الآن. جيمس لطيف ومستقيم وصالح، لكنه لا يحرك عاطفتي».

«اذن يبقى البروفسور تيودور أليس كذلك؟ فلا تقولي انه دعاك الى منزله لمساعدته في العمل».

«أنا لست مؤهلة لذلك»

«اذن انه مهتم بك لشخصك، أعرف أساليب الرجال يا عزيزتي».

«حتى ولو كان في الثانية والخمسين من عمره؟»

«وخصوصاً اذا كان في الثانية والخمسين من عمره. انني أبلغ من العمر الثامنة والاربعين، والرجال في هذه السن، ولاسيما الأرامل مثله، يحتفظون بكل قواهم العقلية وشعورهم وغرائزهم».

ضحكت ماريتا واحتضنت والدتها وقالت:

«سوف تصفين لي حياة الطيور والنحل كذلك».

ثم سمعتا جرس الباب يدق دقتين منتظمتين وبعدها ساد سكون... فهمست جوزفين تقول وهي تنظر الى السلم:

«لقد وصل».

قالت ماريتا:

«اذهبي للقائه فانا نسيت أن أضع بودرة التلك في الحقيبة».

وأخذت تغلق حقيبتها ثانية عندما سمعت والدتها وصوت البروفسور يصلان اليها من السلم. كان صوت والدتها عالي النبرات يرّحب بقدوم الضيف بخجل...

وتذكرت ماريتا أن والدتها لم تقابل أستاذاً من قبل. أما الصوت الثاني فكان سريعاً ودقيقاً يعكس شخصية البروفسور ومجرى تفكيره.

ومما لاشك فيه أن والدتها كانت منبهرة بلقاء هذا الشخص المرموق، وكان نداؤها من الدور الأول وهي تقول: لا تجعلي السيد ... الدكتور... البروفسور تيودور ينتظر ، لا يدل على مدى اضطراب والدتها فحسب بل، لدهشة ماريتا كان بمثابة صرخة لطلب المساعدة والنجدة منها.

وكانت والدة ماريتا تعتبر مضيفة ممتازة في حياة زوجها الذي كان يتبوأ مكاناً مرموقاً في عالم الصناعة، ولم تكن تتأثر بمقابلة الناس ولكن هذه المرة شعرت بأنها تشذ عن هذه القاعدة.

ومنذ سنوات مضت بدأت ماريتا تعمل في قسم البروفسور تيودور وكانت تعد نفسها محظوظة لتعيينها في هذا المركز العلمي بالرغم من كفاءتها المحدودة فنياً. كما كانت والدتها تسمعها تذكر بكل تبجيل واحترام هارفورد تيودور، وتسمع الكثير عن كل أعماله ومنجزاته. لكن ماريتا كانت تعتقد أن والدتها تعجب منه ولا تتصوّر أنها سوف تقابله في يوم ما.

وأثناء هبوط ماريتا السلم كانت تفكر انه بالرغم من بلوغ تيودور الثانية والخمسين من عمره، لابد للمرء أن يعجب بشخصه، فهو ذكي لا مع بنظراته اللماحة الشاملة وهو يتلقى المعلومات وينسقها في كمبيوتر ذهنه. ثم تظهر النتائج لتوها، كما انه وسيم يجمع الذكاء والكياسة: طويل القامة ـ موهوب تدل حركاته السريعة على حيوية زائدة، وتنحني كتفاه في تقوس خفيف. ويتخلل شعره بعض الشعرات البيضاء، أما لحيته المدببة فهي تناسبه تماماً.

ولما جلست ماريتا في مقعدها في السيارة راحت تراقب مناظر ريف شرق أنغليا تعبر أمامها وتتساءل:

«هل حقاً البروفسور تيودور مهتم بها شخصياً؟ فالوالدات دائماً يتخيلن أشياء لا وجود لها».

بدأ كل شيء في يوم بالمعمل وقت الغداء وماريتا تطل من النافذة، بينما كان جيمس مهتماً بإحدى التجارب المعملية حين سألته ماريتا:

وما اسم ذلك الطير الذي يقف على النجيل يا جيمس؟ انا لا يمكنني التفرقة بين الطيور».

فسمعت صوتاً يرد عليها قائلاً:

«انه العصفور الأسود آنسة نيوبل، واذا دققت النظر قليلاً لعرفت ذلك».

التفتت ماريتا لترى وجه البروفيسور تيودور فقالت:

«آسفة ظننت أنني أخاطب جيمس ولكن هل تفهم في حياة الطيور يا بروفيسور؟»

فرد برقة قائلاً:

«أمارس هواية الاهتمام بالطيور في وقت فراغي لأنها هوايتي وموضع اهتمامي، ولدي منزل كبير في الريف ألجأ اليه في عطلات نهاية الأسبوع وفي اجازاتي. وبالمنزل حديقة واسعة جميلة، ومكان أختبيء فيه فأرى الطيور بينما هي لا تراني».

ومن يومها أصبحت ماريتا مهتمة تدريجياً بهواية البروفيسور تيودور ثم أعارها كتاباً يمكنها أن تتعرف على الأنواع المختلفة من الطيور، وقد حدث مرة أن عاد مبكراً من الغداء فاصطحبها للتمشية في حرم الجامعة حيث كان يعرفها على الطيور الموجودة هناك، ويخبرها عن عاداتها في بناء أوكارها وطرق هجرتها.

ثم تبع ذلك الدعوة الى منزله. وقد أدهشتها تلك الدعوة لكنها قبلتها على الفور، اذ قال لها بحماسة:

«سأريك المخبأ الذي أراقب منه الطيور آنسة نيوبل، وباشرافي سوف تصبحين مرجعاً مثلي في دراسة الطيور».

وقالت والدتها: «انه يهتم بك لشخصك»، لكنها كانت مخطئة في ذلك... وكلما قرب الطريق الى منزله نقص الشعور بالتباعد الذي سببه علو السلم الوظيفي الذي يتبوأه، فقد خلع ثوب العلم والمعرفة وأصبح إنساناً عادياً يتكلم في كل شيء، مثل عملية الشراء من متجر القرية عندما تنسى مشرفة منزله السيدة فيسك، شراء بعض ماكتبته في قائمة المشتريات.

ولكن ماريتا لم تتخلص نهائياً من الشعور بالهالة التي تحيط به، فهي

الآن تجلس بجوار الرجل الذي كانت الى وقت قريب تعتبره ينتمي الى عالم آخر غير عالمها، فقد وضع كتباً اعتبرها معاصروه قمة في مادتها، وأوصى خبراء التعليم باستعمالها كتباً دراسية.

ان البروفيسور تيودور يعتبر خبيراً عالمياً في فرع هام من فروع مادة تنقية المعادن، ولذلك اختير عن جدارة كي يكون أستاذاً لمادة تنقية المعادن لسنوات طويلة وفي سن مبكرة نسبياً، كما كانت مؤهلاته عالية.

وكانت ماريتا تفكر وهي تصغي له وهو يتكلم عن منزله ومزاياه انها لا تعرف عنه شيئاً إلا انه أرمل لسنوات طويلة، ولم يشر قط الى ان له أسرة ولذلك استنتجت ان ليس له اولاد.

وانعطفت السيارة في زاوية معينة بالنصف الشمالي من ممر السيارات. وكانت السيارة كبيرة وبراقة زرقاء اللون، لكن المنزل هو الذي أدهش ماريتا لفخامته وحجمه وعراقته، فلابد أنه بني منذ أكثر من مائتي سنة. وكان مبنياً بالطوب الأحمر، والنبات يتسلق جدرانه ويضفي جمالاً على لونه.

ثم أشار البروفيسور تيودور الى شعار العائلة المعلّق فوق نوافذ الدور الثاني وقال:

«هذا الشعار ليس لي بل يخص مالك المنزل الأصلي فقد اشتريت المنزل من أحد ورثته، سيدة توفي زوجها وأرادت أن تتزوج ثانية بعدما تتخلص من مسؤولية هذا المنزل الضخم. وقد كنت سعيد الحظ لأني ورثت عن جدي الثري المال لأشتري مثل هذا المنزل، وأعترف أن هذا المنزل يعتبر وسيلة لارضاء النفس».

ثم نزل من السيارة واستدار ليفتح بابها وأردف يقول:

«يمكنني جعل هوايتي في مراقبة الطيور تملأ كل قلبي».

فسألته ماريتا:

«وهل تسافر يومياً الى الجامعة من هنا؟»

ضحك وهو يرى في هذا السؤال سذاجة لطيفة ثم رد يقول:

«لا، لي شقة بجوار الجامعة. ولكني أعود الى هنا في عطلات آخر الأسبوع».

وانتظرت ماريتا حتى أحضر البروفيسور تيودور امتعتها من السيارة،

ثم قال وهو في طريقه الى مدخل المنزل:
«أرجو لك إقامة طيبة هنا معي».

ثم ابتسم وهو يفتح لها الباب الضخم وقال:
«انني أتطلع الى تدريس تلميذتي المجدة الجديدة مادة العناية بالطيور، وبث روح الحماسة والحب التي أشعر بها نحو هذه الهواية في نفسها».

ولكن ماريتا شعرت ببعض القلق، فربما خذلته بعدم اهتمامها الاهتمام الكافي الذي ينتظره مقابل كرم دعوته لها، وأقسمت أن تقرأ كل كتاب يعيره لها.

وجدت البهو واسعاً مهيباً، وسقفه عال، وأرضيته الخشبية تلمع من نظافتها. أما الدرج المفروش فكان على جانب من البهو.

ثم ظهرت سيدة نحيلة طويلة القامة آتية من جناح الخدم تبتسم لماريتا، ولكن تتخلل هذه الابتسامة نظرة دهشة اتسعت معها عيناها. ثم مدت يدها قائلة:
«أنا السيدة فيسك، مشرفة منزل الدكتور تيودور الدكتور هارفورد تيودور...»

ولاحظت ماريتا ان السيدة فيسك، ركزت في النطق على اسم الدكتور الأول، ولكن لم تعر الأمر اهتماماً لا نشغالها بما حولها من أشياء جديدة.

وحملت السيدة فيسك حقيبة ماريتا قائلة للبروفسور:
«جهزت حجرة الضيوف كما أمرتني يا بروفسور تيودور».

فأومأ برأسه وربّت بيده على كتف ماريتا قائلاً:
«موعد العشاء في السابعة، لكن اذا احتجت الى الراحة فيمكن تأجيل موعده...»

هزت رأسها ضاحكة وهي تقول:
«السفر في سيارتك لمدة ساعة أو ساعتين ليس بالأمر المتعب».

جاراها في الضحك كتقديره لهذا المزاح... ثم قال لها:
«عندما تفرغين من تغيير ملابسك، الحقي بي في غرفة الاستقبال الرئيسية».

تبعت ماريتا السيدة فيسك الى السلم، وفي المنحنى نظرت بدون أن

تدري الى تيودور فرأته واقفاً يتابع صعودها وهو ينظر اليها في تفكير عميق. ففسرت هذه النظرة بأنه يسأل نفسه ان كانت ستتمتع بوجودها في هذا المنزل مع رجل يشكو من الوحدة. ثم راجعت أفكارها قائلة: «نعم مع رجل وحيد» ووجدت غرفة النوم واسعة، أما المدفأة فمزينة بنقوش ورسوم متداخلة. وكان الأثاث ينتمي الى العصور القديمة والصور تعكس تلك العصور، ووسط السقف ثريا من الكريستال المزخرف.

ووجدت السرير عبارة عن أريكة عصرية كأحدث ما تعرضه محلات الأثاث، أما منضدة الزينة والخزائن فكلها من الخشب المزخرف برسومات الورود المتداخلة وانعكست هذه الرسومات في الستائر التي كانت تتمايل مع النسيم وتلتف حول نافذتي الغرفة في إطار جميل. وعلى جانبي المدفأة مقعدان اضفيا على المكان جواً يوحي بالشعور بالراحة.

ورأت ماريتا من باب جانبي جزءاً من الحمام فشعرت بسرور عظيم، ولما دخلته اكتشفت انه كان غرفة لارتداء الملابس ملحقة بغرفة النوم في الماضي، ثم حوّل الى حمام خاص ملحق بحجرة الضيافة.

ولما سمعت كلمات البروفسور وهو يقول لها: «عندما تفرغين من تغيير ملابسك». توقعت أن يكون من عادته إرتداء الملابس الرسمية أثناء العشاء.

فأخرجت من حقيبتها تنورة منقوشة بالزهور وبلوزة بيضاء بدون أكمام مصنوعة من الدانتيلا.

وكان البهو ساكناً عندما نزلت ماريتا الدرج بهدوء، وعندما وصلت الى نهايته سمعت من بعد أصواتاً كثيرة وداعبت أنفها رائحة الطعام الشهي، فشعرت بالجوع الشديد يلاحقها ويمتزج باضطراب مشاعرها، فارتجفت ولامت نفسها لجوعها لأنها لم تتناول شيئاً منذ وجبة الغداء. ثم عبرت البهو الى باب مفتوح قليلاً وسألت نفسها هل دعاها مضيفها لموافاته في غرفة الطعام أم في غرفة الاستقبال، لم تجده في غرفة الطعام لكنها لم تتراجع، فالغرفة لم تكن خالية اذ رأت رجلاً يدير ظهره ويطلّ من إحدى النوافذ. له قامة طويلة وشعره البني الفاتح يتموّج حتى ياقة قميصه المخطط. كان يضع إحدى يديه في جيب

يتطلونه ويمسك بكأس بالأخرى. وكانت ماريتا قد دخلت بهدوء فلم يشعر بها، وظنت أنها اذا حبست أنفاسها وتراجعت من الغرفة بدون أن تستدير ربما أمكنها الهرب من الغرفة بدون أن يراها.

ويبدو انه قد سمع خطواتها فاستدار اليها. ثم ارتسم على وجهه تعبير دهشة شديدة شلّت حركة رئتيه فلم يتكلم، كما ضاقت عيناه وقطب حاجبيه الكثيفين الداكنين، وكان أنفه مستقيماً وفمه واسعاً وتتسم شفتاه بالسخرية. وربما بالمرارة.

وشعرت ماريتا أنها ارتكبت ذنباً فأصلحت من وقفتها. وتساءلت عمن يكون ذلك الرجل الذي أصابها بذلك الشعور الجارف بالذنب؟ وكان يرتدي سترة رمادية متقنة الصنع تنسدل في تناسق على جسمه. وكان رباط عنقه أحمر داكناً يتناسب مع خطوط قميصه.

شعرت أنها لا بدّ أن تبدأ الحديث. ولكن ماذا أغضبه منها؟ هل لاحظ أن بلوزتها تكشف عن جسمها؟ أو هل غالت في استعمال ظلال عينيها؟ أو هل استعملت الكثير من طلاء الشفاه؟ وشعرت أنها ربما أخطأت بحضورها الى هذا المنزل ولكن عقلها هداها بعكس ذلك لأن البروفسور تيودور دعاها الى منزله ولها الحق بالبقاء فيه بالرغم من نظرة عدم الترحيب التي تراها في عيني هذا الشاب الرماديتين.

وبدأت تقول:

«أنا آسفة.

كان هذا كلّ ما أمكنها قوله ثم أردفت تقول وهي تتراجع:

«سوف أذهب فلم يكن في نيتي أن أضايقك».

«اذن أنت صديقة والدي؟»

«صديقة البروفسور تيودور؟»

«ألم يذكرني أبي لك؟ ولكن هذا لا يدهشني فقد حاول أن ينسى ذلك لمدة اثنين وثلاثين عاماً».

وبعد فترة طويلة من الصمت أخذ ابن البروفسور خلالها يتفحص ماريتا كتاجر المجوهرات حين يتفحص قطعة من الأحجار الكريمة، ثم استأنف حديثه:

«انني أعترف بذوقه».

ثم ارتكز بظهره على حافة النافذة ورشف من مشروبه وقال:

«ربما يفتقر أبي الى الحكمة، وربما كان لا يتحفظ ولكنه يمتاز بالذوق».

شعرت ماريتا بالجمود ولاحظت أنه كلما شعرت بالتوتر أخذ هو يشعر بالارتياح فقالت له:

«اني آسفة يا سيد تيودور، لأنني لا أفهم ماذا تقول».

فقاطعها قائلاً:

«اسمي رايان. كل صديق لوالدي هو صديقي. دعيني أقدم لك شراباً...»

ثم اعتدل في وقفته وعبر الغرفة الى منضدة صفت عليها زجاجات الشراب المختلفة.

«أنا لست صديقة والدك، ولكني أعمل في القسم الذي يرأسه».

«انك تدهشينني».

واستدار وقدم لها كأساً من الشراب فقبلته شاكرة، ثم ملأ كأسه ثانية، وأضاف بعض الصودا اليه ثم ارتكز على المائدة يكاد يجلس عليها وقال:

«انك متعلمة وجميلة، ولك مزايا كافية أن تجعلك تتقاربين مع مستوى أبي الرفيع. انه يشترط ان يعمل مع الصفوة من المساعدين الأذكياء. أخبريني عن مستوى ذكائك».

قال ذلك وهو ينظر اليها بتكاسل، وتدل نظراته انه يهتم بأشياء أخرى بجانب ذكائها.

فقالت له:

«انا مساعدة في المعمل».

ولكنها كانت تتمنى من كل قلبها أن تمحو من عينيه تلك النظرة التي لا تكن لها الاحترام، والتي كانت لسبب غير مفهوم تشدها اليه.

ثم انفجر ضاحكاً وهو يقول:

«مساعدة في المعمل؟»

فاحمرّ وجه ماريتا غضباً، وشعرت أنها أوشكت على البكاء.

وسمعته يقول:
«هذا غريب مثل الأمير والخادمة. البروفسور ومساعدة المعمل الصغيرة».

ارتجفت شفتا ماريتا وراح ينظر اليها غابت ابتسامته وحلت مكانها نظرة اهتمام. وعندما تلفتت لتجد مكاناً تضع فيه كأسها اقترب منها وقال وهو يضع يده على ذراعها:

«لا... لا دعينا نشرب نخباً أولاً».

فجاهدت كي تحافظ على كرامتها وعلى هدوئها وردت قائلة:

«شكراً. ولكني لن أشرب معك نخباً».

وابتسم ابتسامة غريبة وقال:

«تعالي، فقد نتآلف في المستقبل من غير ان تدري... ومن يدري ماذا يخبيء القدر لنا».

ثم رفع كأسه ونظر الى المشروب الذهبي وكأنه ينظر الى كرة الكريستال التي يقرأ فيها العرافون الحظ وقال:

«ان في ذهني شيئاً هو شيء ملهم. ولكني سوف أحتفظ به كسرّ من الأسرار. فالى المستقبل آنسة...»

ورفع حاجبيه يطلب الرد.

«تيوبل...»

«آنسة تيوبل، الى المستقبل الذي لا يصدقه عقل».

ثم تقارعت كأساهما.

وبينما هما يشربان النخب سمعا صوتاً بالباب يقول:

«الدكتور تيودور يا عزيزتي ماريتا، أقدم لك الدكتور رايان تيودور!»

استدارت ماريتا لتحيي مضيفها وقد اعتراها شيء من التخبط وقالت:

«الدكتور تيودور؟ وهل هناك اثنان؟»

فقال الابن:

«انه شيء يدعو الى الحيرة، فكلانا حاصل على دكتوراة في الفلسفة وهي موجودة في نطاق العائلة».

ثم قال الأب وهو يضع يده على كتف ماريتا:

«ان مؤهلات ولدي العلمية تتساوى مع مؤهلاتي...»

«ولكن المادة تختلف».

فرد الأب يقول:

«لكل منا عالمه»

«فأبي كما تعرفين متخصص في تنقية المعادن».

«وابني جيولوجي».

اذن فان هذا الرجل موهوب كأبيه، وذكاؤه حاد مثله وإدراكه قوي وأفكاره لماحة، ولكن هل كان في حكمة أبيه وقدرته على وزن الأمور؟ وهل هو يتسم بالنضج الذي ينظر به الى الاشياء وفهمها؟

«انك مستغرقة في أفكارك يا آنسة تيوبل. هل يقلقك أن تمضي فترة اجازتك في صحبة عملاقين من عمالقة الفكر؟ اذا كان هذا الأمر يقلقك فأرجو أن تشعري بالراحة، فنحن في المنزل، كما ترين، شخصان عاديان ولا أكثر من ذلك. وخصوصاً في صحبة امرأة».

كان يقول ذلك وهو يبتسم ولكن عينيه ظلتا جامدتين.

اذن فهذا منزل رايان تيودور كما هو منزل والده، فهل ستتوافق إقامته مع إقامتها هنا؟ ان هذا الخاطر قد أقلقها وضايقها.

وأخذ رايان الكأس من يدها قائلاً:

«سآتي لك بأخرى. وماذا تشرب يا أبي؟»

فرد عليه البروفسور قائلاً:

«كالمعتاد، وشكراً».

ثم طلب البروفسور من ماريتا أن تجلس بجانبه ووضع الوسادة وراء ظهرها، وكانت تصرفاته تدل على أنه يريد ان يرضيها. ثم ابتسم وسألها:

«هل تشعرين بالراحة يا عزيزتي؟ وهل تحتاجين الى وسادة أخرى؟»

ووقف الابن أمامها ليقدم لها المشروب، وقع نظرها على وجهه فاذا به يبتسم ابتسامة تختلف عن ابتسامة أبيه، ثم يوجه كلاماً كله سخرية كابتسامته:

«هل تريدين أن تأتي لك مشرفة المنزل بمسند تضعين عليه قدميك يا آنسة نيوبل؟ وهل تستخدم خادمة خاصة لك مدة اقامتك هنا؟ وهل تفرش لك الأرض ببساط أحمر أينما ذهبت؟»

فصاح والده وصوته يرتجف من الغضب:

«رايان!»

وهنا أدركت ماريتا، والخجل يكسو وجهها من سخرية الشاب، أن الأمور لا تستقيم بين البروفسور وبين ابنه الشاب. وأرادت أن تغيّر من الحديث فسألت مضيفها متجاهلة الشاب:

«كم عمر هذا المنزل؟»

«حوالى مائتين وخمسين عاماً. وقد تغيّر طراز هذه الغرفة في مطلع القرن الماضي، وقسمت الى غرفتين، أشغل الأخرى كمكتب لي».

ورأت المدفأة وقد حلّت محلها أجهزة التدفئة، وقد زيّن الجزء الأوسط من سقف الغرفة برسوم أوراق الشجر، وجدران الغرفة مكسوة بالأخشاب.

أما اللمسة العصرية الوحيدة الموجودة في الغرفة فكانت لوحة عصرية غامضة معلقة فوق المدفأة.

ثم قال هارفورد تيودور:

«هذه الأريكة من طراز شيبا نويل، وخزانة الكتب من الطراز الجيورجي والمنضدة التي تحمل المشروبات مصنوعة من خشب الجوز وترجع الى القرن الثامن عشر، أما المرآة فهي من طراز الملكة آن ومعظم هذه القطع اشتريتها مع المنزل نفسه».

«انها كلها جميلة».

ثم قال هارفورد:

«هذا المنزل يمتاز بالبساطة بخلاف غيره من منازل ذلك العصر وكان ذلك من الاسباب التي جعلتني اشتريه، فان البساطة تروق لي».

وتساءلت ماريتا: هل تخيّلت أن عينيه ظلتا معلقتين بوجهها أم هذا هو الواقع.

ثم قال رايان وصوته يقطر سخرية:

«البساطة تريح رأس أبي المعقد. ولذلك...»

وأحجم عن أن يكمل كلماته فجأة. فهل أخافته نظرة التحدي التي رآها في عيني والده؟

ثم قال لها:

«هل تروق لك الأشياء القديمة القيمة يا آنسة نيوبل؟»

ولاحظت انه ركّز على كلمة قديمة قليلاً.

ثم نظرت اليه فجأة. وللمرّة الثانية لاحظت ابتسامة السخرية على فمه. فردت تقول:

«انني أراها في نافذة العرض فقط يا دكتور تيودور».

«وهل تفتقرين الى المال لتحصلي على الكماليات؟»

«انني، كما أخبرتك، مساعدة في معمل فقط».

وحاولت أن تتفادى نظراته.

«لابد أن أهلك ينتمون الى أصحاب المداخيل الكبيرة».

فرد والده يقول:

«رايان لا يجب أن...»

فتدخلت ماريتا تقول وهي تنظر اليه وتبتسم ابتسامة تحد:

«أبي توفى منذ سنوات مضت وأعيش الآن مع والدتي... استمر في أسئلتك يا دكتور تيودور».

رفع رأسه وضحك عالياً وأخذ يرشف من مشروبه ثم ينظر اليها مفكراً يملأه الفضول وقال:

«سآخذ بكلامك وأسألك سؤالاً آخر ألا تعتقدين أنك أكبر قليلاً من أن تكوني مساعدة في معمل؟»

فرد والده يقول:

«كبيرة يا رايان؟ ماذا تقول، انها في الرابعة والعشرين فقط إن بعض المساعدين عندنا أكبر كثيراً من ماريتا».

ولم تتحوّل عينا رايان عن وجه ماريتا وقال:

«ربما لم أحسن التعبير في سؤالي هذا. وربما قصدت أن أقول أنك أكبر من أن تظلي بدون زواج. انك جذابة للرجال».

فهب البروفسور تيودور واقفاً وهتف يقول:

«رايان!»

وبان الغضب الذي كان يشعر به وكأن ابنه اعتدى على كل شيء، مقدس يخصه. ولم تقو ماريتا أن تبقى جالسة تتحمل الاهانة من اسئلة ابن البروفسور تيودور المغرور، فوقفت وعيناها تقدحان شرراً وقالت:

«لم أتزوج لأنني لم أقابل الشخص الذي يروق لي والذي يجعلني أفكر في إدماج بقية حياتي في حياته».

«هل هذا صحيح؟»

«نعم».

ودق ناقوس العشاء ينبّه الموجودين ويرسل دقاته الى كل غرف المنزل ويعدهم أنهم سيجدون الألفة حول المائدة التي تنعكس على ضوئها أنوار الشموع والكؤوس، ويجدون الصحبة الهنية والحديث العذب.

ووجدت ماريتا ما توقعته. فكانت المائدة من الخشب الداكن تتسع لجلوس ستة أشخاص، ولذلك بدا ثلاثتهم وأنهم تائهون فيها.

وتولت السيدة فيسك تقديم الطعام بمهارة أما الشراب فقد وزعه البروفسور بنفسه. وبقي رايان معظم الوقت صامتاً لا يعبّر وجهه عن شيء، وكان كلّ اهتمامه منصباً على الطعام الذي يأكله.

ولكن لم يفته ملاحظة الاهتمام الذي كان والده يغدقه على ضيفتها. فأخذ هارفورد يسأل ماريتا مرات اذا كان الطعام يروقها. وهل تطلب شيئاً آخر؟ وهل أعطتها السيدة فيسك كفايتها من الطعام أم زادته قليلاً أو أنقصته قليلاً؟

وكانت ماريتا جالسة على يمين البروفسور تيودور، ولم ترفع عينيها مطلقاً لتنظر الى ابنه الجالس تجاهها. ولكن عندما قارب العشاء أن ينتهي اقترح

تيودور أن يشربوا نخباً. فملأ الكؤوس وعندئذ نظرت ماريتا الى رايان. ثم قال هارفورد وهو يرفع كأسه عالياً ويقرع كأس ماريتا:

«الى صديقتي الصغيرة ماريتا».

ولكنه عندما قدم كأسه لابنه لم يقرع بقوة بل تردد رايان لبرهة كأنه يعاني من شيء، ولكنه تغلب على ما يقلقه وقدم كأسه وهو يقول:

«آنسة تويل».

ولكن ماريتا حاكت رايان في تردده، وكانت متعمدة في ذلك. فلبرهة كذلك كانت تعاني من صراع داخليّ، ثم رفعت كأسها الى رايان بالرغم من أنها لم تكن عندها النية كي تلمس كأسه. ولكنه كانت تراوده أفكار أخرى فمال عبر المائدة وأمسك برسغها وقرّب كأسها من كأسه ثم استمرّ في الامساك بيدها حتى تلامست الكأسان.

وكانت الحرب سجالاً بينهما تفسد رسالة السلام والمحبة التي تميّز كل الأنخاب.

ثم قال:

«الى صديقة والدي الصغيرة، الصغيرة جداً».

ثم ترك يدها بعد أن كسب الحرب الدائرة بينهما.

ولكن يبدو أنه لم يكن راضياً عن ذلك فقال لوالده:

«الآنسة تيويل تنكر انها صديقة لك...»

ولكن لماذا أراد ان يسخر من والده ويتحداه؟ ثم نظرت ماريتا الى البروفسور تيودور فلاحظت ان غضبه الذي أثاره رايان بإمساكه يدها قد زاد بكلامه.

«وفي الحقيقة عندما دعوتها بصديقتك احتجّت لذلك وأصرّت أنها واحدة من أصغر موظفيك الذين يعملون في معملك».

ألقى رايان على أبيه نظرة ليرى تأثير كلامه عليه، ولكن هارفورد أعد جوابه بكل عناية. فوضع فنجان القهوة على طبقه في الوسط تماماً ثم تناول الملعقة وبدا وكأنه يدرس معدنها بعناية ثم وضعها ثانية وبعد ذلك أخذ يتحسس لحيته.

ثم قال أخيراً:

«موظفة؟ لا اني أفضل كلمة مساعدة. صغيرة؟ بالعكس فهي الواسطة الهامة في سلسلة تعليم الأسس التي يرتكز عليها القسم بل أي قسم علمي. وهي مهمة كالنواة الصلبة».

ضحكت ماريتا وملأ وجهها الخجل وقالت:

«انك تخجلني يا بروفيسور تيودور».

وفي الوقت نفسه كانت تلاحظ اهتمام رايان بكلامهما.

«لكن اذا تركت العمل؟»

«سوف نبحث عن شخص آخر كي يشغل محلك وفي كل حال أنا مقتنع بعد معرفتك تلك المعرفة البسيطة، بأن إمكانياتك الذهنية أكبر مما أتصورّ».

«انه كرم منك ولكن...»

فقال البروفيسور:

«كرم؟ اني لا اتكلم عن الكرم بل وصلت الى هذه النتيجة بعد الملاحظة والنتائج الموضوعية».

ثم سمعت رايان يتمتم بسخرية ويقول:

«اهنئ مكانة والدي العلمية يا آنسة تيوبل، وكما ترين ان العالم يفكر بطريقة موضوعية محايدة في كل المواضيع... فهو يبعد نفسه عن أي مشكلة تقابله ثم يفصل فيها كشيء قائم بذاته، حتى كل عواطفه وشعوره وحبه اذا كان سيء الحظ وترك لنفسه العنان كي يخضع لهذه العاطفة، فهو يبتعد ويحكم على الأشياء بهدوء وبدون تحيّز وبطريقة علمية. وأنا كعالم أعرف الأشياء من التجارب».

«تجارب يا دكتور تيودور؟ انني مندهشة لعدم اتباعك الأسلوب العلمي كي تنمي عاطفة الحب لغيرك لا لنفسك فقط».

وكان وجهه الخالي من كل تعبير إلا السخرية الجامحة قد جعل ماريتا تشعر بالبرودة رغم دفء الشمس التي تسطع من النوافذ.

فضحك الأب وشعر الابن بالهزيمة ثم قال الأب:

«أحسنت وصفه يا ماريتا. لقد قام بمغامرات كثيرة. ولكنه اعترف لي مرة أن الحب لم يمس قلبه أبداً... النوع الآخر من الحب لرجل في سنه أمر مسلّم به، ولكن

الحب الدافئ العميق فلم يعرفه. ولذلك أحسن صنعاً انه لم يتزوج، فهو لا يعرف معنى الاخلاص».

ثم تلاقت نظراتهما في غضب وفي حرب لا هوادة فيها، وكان من الواضح أن المرارة التي يشعر بها كلاهما لها عمق سحيق وأن كليهما قد جرح من الآخر فراح يخفي ذلك الجرح. وعرفت كذلك بغريزتها وبإحساسها الداخلي أن وصولها الى هذا المنزل قد عمّق الخلاف. فشعرت بالخوف.

٢ ـ ماذا يريد منها؟

ودخلت السيدة فيسك الى الغرفة ومعها مزيد من القهوة ساعد على تخفيف حدة الصمت الذي ساد جلستهم. قام البروفسور تيودور من مقعده وانحنى قليلاً الى مارينا وقال:

«أرجو أن تأذني لي بالانصراف يا عزيزتي».

وراح ينظر الى النافذة بشوق وحنين كأنه سجين يعد الدقائق حتى يطلق سراً ثم قال:

«طال بعدي عن منزلي على غير عادتي فلا بد أن أرجع الى مخبأ مراقبة الطيور».

ووضع يده على ذراعها وأبقاها لبرهة ثم ذهب.

وسمعت مارينا رايان يقول هامساً:

«والدي ترك لي العناية بالطفلة».

وركز على الكلمة الأخيرة مما جعل الدم يندفع الى وجهها ثم أردف يقول:

«فماذا أفعل بها؟»

كانت مارينا متأكدة ان تسعة من عشرة من النساء يهرعن اليه فاتحات أذرعهن له. وقالت لنفسها سأكون انا العاشرة التي تشذ عن هذه القاعدة. وسأبقى ثابتة ولن أتخذ أي خطوة نحو ذلك الرجل سواء كانت معنوية أم مادية.

وعندما اقترب منها قامت مارينا واقفة ووضعت المقعد في مكانه لكنها نظرت اليه الآن وعيناها تقدحان شرراً.

ثم قالت له:

«أرجو ألا تشغل بالك بي يا دكتور تيودور. فامضي في عملك أو تسليتك وكأني غير موجودة».

«عملي يمكن تأجيله. أما تسليتي فأظن أنت أو أبي لا ترضيان بها أو توافقان عليها».

استدارت وسارت تجاه الباب وسمعته يقول:

«الى أين أنت ذاهبة؟»

«الى حجرتي، فلم أفرغ حقيبتي بعد».

«أجّلي ذلك قليلاً وتعالي لتري المنزل! سوف أصحبك الى أنحائه وتتعرفي عليه».

كانت نبرات صوته الآن قوية مما جعلها تطيعه لتوّها.

ولحق بها عند الباب ثم وضع يده على ذراعها بخفة تماماً كما فعل والده. لم تؤثر لمسة والده عليها البتة أما تلامس ذراعها بيد ابنه فقد سبب لها شعوراً بالرجفة ولم تملك إلا التراجع ولم يخف تعجبه لأمرها.

ثم سبقها الى البهو وهو يقول:

«دعيني أريك الطريق».

ثم دفع أحد الأبواب المنقوشة وقال:

«هذا هو مكتب والدي».

وكما قال البروفسور تيودور كان مكتبه جزءاً من غرفة الجلوس. وبالرغم من تناثر الأوراق ووجود رزم المجلات وأكوام الكتب الموضوعة على مكتبه بجانب أقلام الرصاص ورسومات الطيور، فان الحجرة ما زالت تحتفظ بطابع من وقار يميزها وحدها. وربما أنها كانت جزءاً من غرفة الاستقبال الكبيرة الفخمة فلم تفقد عراقتها كلها.

ثم قال رايان:

«ليست لدي النية لأصف لك بدقة كل قطعة من قطع الأثاث وأذكر لك تاريخها».

ثم أغلق باب المكتب وفتح باباً ثانياً وقال:

«هذه الغرفة كانت معروفة بغرفة الاستقبال، وهنا يمكنك أن تشعري بالماضي يحيا

ثانية، فوالدي أصر على بقائها كما هي كي تحتفظ بالماضي».

ثم رفعت ماريتا عينيها الى السقف الذي أخذت نقوشه تتواصل وتلتف حتى تصل الى وسطه حيث تتدلى ثريا الكريستال البراقة. ثم يطوف نظرها بالمنضدة والمقاعد ذات القيمة التاريخية العظيمة، والى حيث كانت تعلق صور أصحاب المنزل القدامى لكنها وجدت صورتين. الأولى خاصة بالبروفسور تيودور نفسه عندما كان في الثلاثينات من عمره، والأخرى لرايان تيودور ربما رسمت له منذ عشر سنوات.

وقفت ماريتا تنظر الى عيني الرجل في الصورة فوجدت أن عيني رايان حتى في تلك السنة جعلتاها تغض من نظرها.

ثم قالت:

«انني لا أجد صورة...»

فتوقع استفسارها وقال:

«والدتي توفيت بعد مولدي بساعات قليلة».

وكان يتكلم ببرود وعدم اهتمام. وكانت ماريتا تود أن تعرف كيف توفيت والدته ومن تولت تربيته من التي أرضعته كطفل؟

ثم قال لها:

«هل نظرت يا فيه الكفاية الى صور العائلة؟ وهل كنت تتمنين من صميم قلبك أن يكون والدي الآن في السن التي يبدو فيها بالصورة؟»

فالتهب وجهها خجلاً وقالت:

«انني لا أعرف ماذا ترمي اليه يا دكتور تيودور؟»

«هل ننتقل من هنا؟»

ثم استمرّ في إيلامها غير مبال بشعورها، فهو المسيطر في كل المواقف وهو المعتدي دائماً.

ثم صعدا السلم يتقدمها رايان وقد لزما الصمت ولما وصلا الى أحد الأبواب أشار اليه رايان وقال:

«هذه هي غرفة أبي».

وكان من الظاهر أنه لم تكن لديه النية كي يريها حجرة والده من الداخل ولما وصلا الى الباب التالي قال لها:

«هذه هي حجرة السيدة فيسلند».

ثم أدار مقبض الباب في الممر نفسه، ودعا ماريتا للدخول وهو يبتسم ويقول:

«السيدة فيسك تنفض يدها من حجرتي أثناء وجودي هنا اذ لا تبدي أي محاولة لتجعل الغرفة بالغة النظافة كما تجعلها في غيابي».

وكانت غرفته واسعة كبقية غرف المنزل، لكنها تخلصت من العراقة التي اكتسبتها طوال أكثر من قرنين وتحولت الى غرفة للنوم، وللجلوس وللعمل معاً، ومما لا شك فيه أن شخصية صاحبها كانت تنعكس عليها، فهو قادر أن يدمغ كل شيء من ممتلكاته بشخصيته سواء كانت مادية مثل المكتب ومابعثر فوقه، والمقاعد الجلدية البنية اللون، والسرير الكبير العصري، أو كانت نساء حياته.

ورأته يخلع سترته ويرتمي على السرير ثم يفك ربطة عنقه وراح يراقبها باهتمام وعيناه نصف مغلقتين، وشفتاه مقوستان. وشعرت ماريتا في الوقت نفسه أنها تحترق تحت نظراته، وأدركت ونبضها يسرع مدى جاذبيته. ولم يرجع ذلك لوسامته فحسب، بل لقامته الفارعة وكتفيه العريضتين وسخريته وقوته اللاذعة. وشعرت بأنه يجذبها اليه بقوة ذهنه ويملي عليها ارادته الخارقة كي يشدها الى الفراش وأصبح كل ما عليه أن يمد يده ويجذبها اليه. ثم...

وكانت ماريتا غاضبة من نفسها ومن احمرار وجهها الذي ينمّ عن أفكارها فأدارت ظهرها اليه، ولكنه لم يكن جاهلاً بالحرب في نفسها بل هو يعرف تماماً بما تشعر به وسمعته يهمس من السرير قائلاً:

«لا»

فردت تقول:

«لا»

ثم ذهبت الى النافذة وأخذت تنظر الى ممتلكاتهم الواسعة.

وسمعته يهمس ويقول:

«تجاربي دلتني على أن النساء عادة لا يبدين أية صعوبة امامي، ولكن البعض يحتجن الى بعض الوقت أو الملاطفة».

«انا اختلف عن ذلك الصنف الذي تعرفه من النساء».

فقال وهو مغمض العينين:

«ليس من النساء من تختلف عن ذلك، ففي هذه الأيام ماعلينا إلا أن نشير بأصابعنا حتى يأتين الينا كالقطط ثم يطلبن ما شئن...»

قالت وهي تقطب:

«وهل يحصلن على ما يطلبن؟»

فرد يقول باختصار:

«أنا رجل...»

ثم مرت فترة قال بعدها:

«هل صدقت ما قاله والدي عني اثناء العشاء؟

بأن الحب الحقيقي لم يمس قلبك؟ وأنك لم تشعر بدفء الحب النقي وبالعاطفة العميقة؟ نعم صدقته فتصرفك منذ أن قابلتك يدلّ على ذلك. في وسعي أن أقرأ شخصية الغير بسرعة فائقة».

ضحك عالياً وفتح عينيه ليهزأ بها ثم قال:

«مساعدة المعمل الصغيرة تحوّلت الى محللة نفسية في لمحة عين وهل تحللين شخصية والدي؟ وهل كشفت عن حبه المعقد؟ وهل فسرت نواياه، ورغباته المبيدة؟ وهل تعرفين كل أحلامه؟»

تألمت لسخريته ثم قصدت الباب وهي تقول:

«اذا كنت فرغت من تعريفي بأرجاء المنزل...»

نهض من السرير وأصلح رباط عنقه وقال:

«مازال هناك مكان آخر، انه في الدور الأعلى...»

وعندما وصلا الى الطابق الأعلى قال:

«هذا هو مكتبي عندما أكون هنا، حيث أعمل وأفكر في الماضي، وحيث أفكر في العصر الجليدي بجانب الصخور والمعادن وبقايا الحيوانات والنباتات».

وكانت المعدات هي التي لفتت نظر ماريتا أولاً لأنها ذكرتها قليلاً بالمعمل الذي تعمل فيه، فكانت مليئة بالمجاهر والآلات وقطع الأحجار ثم تنبهت وهو يراقب وجهها فقال لها:

«أراك مندهشة».

«أنا مندهشة فعلاً، فلديك كل هذه الآلات الرهيبة، وكنت أظن ان الجيولوجيين يحفرون لاستخراج كنوزهم من الأرض».

فضحك لهذه الفكرة وقال:

«اذا كنت تتوقعين ان تجدي هنا آلات أخرى مثل الكوريك والجاروف فأنت تقعين في خطأ عادي، فتخلطين بين الجيولوجيا والحفريات فعلماء الحفريات يتعاملون في نطاق آلاف السنين أما الجيولوجيون، فيتعاملون مع آلاف الملايين من السنين».

ثم أشار بيده وقال:

«هذا هو مجهر جيولوجي يكبّر ويظهر الأشياء التي ترى من خلال أنبوبة، ولن أتمادى في تفسيره لأنه آلة معقدة حتى أن الشخص العادي لن يفهمه بسهولة، وخصوصاً مساعدة المعمل التابع للبروفسور تيودور».

وابتسم بسخرية وقال:

«ان علم البترولوجيا هو دراسة الصخور».

ثم قصد الى آلة أخرى وقال:

«هذا مجهر مصوّر يشبه سابقه، لكنه مزوّد بكاميرا فيمكنني أن أصوّر به دقائق المعادن والصخور».

ردت ماريتا تقول وعيناها تبرقان:

«أين وجدت بقايا الصخور وهذه النباتات الرائعة؟»

«جمعتها من كل أنحاء العالم، فحياتي مثل الرحل».

فقالت بدهشة:

«اذن فأنت لاتدرس؟»

«لا، أنا لست مدرّساً أو محاضراً بل أترك التدريس الجامعي لوالدي المرموق

وأستخدم المعرفة التي اكتسبتها. فأنا في الأصل عالم في طبيعة الأرض».

«ولكن أباك قال انك جيولوجي».

«في الأصل أنا جيولوجي ولكني نلت مزيداً من الدرجات العلمية في تلك المادة».

«اذاً فانت نابغة كوالدك؟»

انحنى لها انحناءة عميقة شاكراً.

ثم سألته وهي تغامر وتتوقع أن يحرجها:

«ولكن أين تعمل؟»

فابتسم وقال لها:

«العالم بأسره هو مكان عملي».

ولما قطبت قال لها:

«ربما أجعلك تفهمين بوضوح اذا قلت لك انني أعمل في شركة أمريكية للنفط وكعالم لطبيعة الأرض أزور أماكن مختلفة من العالم».

«اذن لماذا تبقى هنا؟»

«رجعت لتوي من ألاسكا في اجازة مدتها شهران، وفي الوقت نفسه أكتب تقريراً عن منجزاتي الى رؤسائي كي تبدأ الشركة في إقامة معدات لآبار النفط».

«انها مسؤولية كبيرة».

«نعم ولكني أنال أتعاباً كبيرة جداً».

«اذن عليك أن تذهب الى حيث ترسلك الشركة؟ فعملك لا يعد نظرياً».

«كلا».

ثم راحت ماريتا تتخيله وهو يرتدي خوذة واقية على رأسه، وينتعل الحذاء العالي ثم يختار ملابس قديمة وربما كانت ملطخة بالوحل. وكان هذا الخاطر لسبب ما يثيرها.

ثم قالت له:

«هل تضايقك هذه الحياة التي تتنقل فيها من بلد الى آخر؟»

فهز كتفيه وقال:

«ولماذا تضايقني؟ ليست لي روابط أسرية فلا زوجة ولا أولاد وليست لدي مسؤوليات سوى عملي».

ثم ابتسم فتأكدت ماريتا انه سيقول شيئاً يلدغها.

«أنا خال من المضايقات، خال من مسؤولية النساء، ولدي المال بل الكثير منه، وأقوم بعمل أحبه، وأجوب العالم. فماذا أطلب من الحياة أكثر من ذلك؟»

مدت ماريتا يدها لتلمس أحد المجاهر وقالت له:

«أليست لك صديقة؟»

مد يده ذات الأصابع الطويلة، وقبض على رسغها وأبعد يدها عن الآلة التي كانت تلمسها فنزعت يدها منه وقالت غاضبة:

«أنا متمرسة في العمل على الآلات».

«لكني أشك أنك استخدمت هذا الصنف الفريد من الآلات. ورداً على سؤالك اذا كان كل رجل يتخذ لنفسه صديقة فهذه مسألة خاصة باحتياجات الجسد. نعم ان لي صديقة».

وشعرت لسبب ما أن حلقها جف قليلاً ثم قالت له:

«وهل ستتزوجها ذات يوم عندما تستقر؟»

«ليس لدي النية لأتزوج أو أستقر في مكان. لن أجعل المرأة تسيطر على مستقبلي، ولن تقبل أي امرأة ان تتحمل الحياة التي أعيشها».

ابتسمت ماريتا وهمست تقول:

«هل تقول انها رغبات الجسد؟»

«انني لا أجد أي صعوبة في إرضاء هذه الرغبات. فالنساء كثيرات وقد يصبحن شحيحات في بعض الأماكن ولكن هناك الأجازات التي يمكن للمرء أن يستغل وقته فيها».

وفجأة شعرت بالاشمئزاز من حديثهما معاً فقالت بمرارة:

«والدك يعد ملاكاً اذا قورن بك».

فقال حاسماً:

«دعيني أؤكد لمساعدة معمل أبي الصغيرة أن أبي في هذه الناحية يعد ملاكاً

فعلاً. وهو قد يحوّل أي رغبة يشعر بها لأنه لا يظهر أية علامة خارجية تدل على هذا الاشتياق»

رأمسك عن الكلام فترة ثم سألها:

«قولي لي ماذا تعمل مساعدة المعمل في سبيل الحصول على رزقها؟»

«أعد الأدوات التي يستخدمها الطلبة في إجراء التجارب، ثم أسجل النتائج في شكل رسم بياني، ثم أشرف على البحوث مثل بحوث الضغط في المعادن»

«نعم هبوط المعادن الذي يسبب سقوط الجسر وما شابه ذلك هذا مجال والدي وليس مجالي»

ثم اتكأ على المكتب وشبك يديه على صدره يتفحصها ولم يرحها، فراح ينظر الى جسمها والى وجهها الجذاب، ثم لمس رأسها فابتعدت عنه وهي تتساءل: هل يلمسها متعمداً؟ وحينئذ قال:

«انك تثير ينني. فلك عقل يستحق الدراسة لديه القدرة على التطوّر والأفكار البناءة، كان يمكنك أن تبادري بالقيام بتجاربك الخاصة بدلاً من مجرّد إعداد المعدات للآخرين. فماذا حدث لك؟»

نظرت الى الكتب الموضوعة فوق الرفوف التي تحيط بالغرفة، وقالت :

«عندما مات والدي أجبرت على ترك الدراسة. وأتمنى عندما يأتي الخريف أن التحق بالدراسات وأنال مؤهلات أعلى. على أن تكون دراسات غير نظامية»

«ولماذا لا تلتحقين بدراسات نظامية حتى تحصلي على نتائج أسرع؟»

نهزت رأسها وقالت:

«ان والدتي تعمل ولكن مرتبها لا يكفينا معاً. فلا يمكنني التخلي عن وظيفتي وقد أحتاج الى وقت طويل كي أتخرج فعليّ أن أتحمل وأنتظر»

«سأسألك سؤالاً كما سألتني من قبل. هل لك صديق؟»

وأرادت أن تحتج على تدخله في صميم حياتها الخاصة ولكنها تذكرت تدخلها في حياته بسؤالها. وتذكرت جيمس، فهو عالم مثل البروفيسور، ولكنه أقل منه درجات وهو ماهر جداً حتى أن البروفيسور يقدره ويجله وكان جيمس مهتماً جداً بعمله فقط

كانا يخرجا معاً أحياناً وكان حديثه معها ينصب على العمل وحده، وكان يعانقها من وقت لآخر، لكنها كانت تشعر أن عقله متعلق بالعمل. فأجابت دون تردد:

«اسمه جيمس هيستون وهو في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، نحيل، ويكرّس نفسه لعمله دائماً، وهو محاضر في قسم والدك»

«هل أنت جادة في حبه وهل تنوين الزواج به؟»

لسبب ما لم تشأ ان تقول الحقيقة لذلك الرجل، فاكتفت بقولها:

«ربما تزوجنا. من يدري؟»

«لكنك أكدت لي على العشاء انك لم تقابلي بعد الرجل الذي تريدين أن تدمجي حياتك بحياته الى الأبد»

وخيّل اليها انه غلبها ثم قالت:

«انني... جيمس هو أقرب رجل الى المثالية التي وضعتها لحياتي»

فراح يسخر ويقول:

«جيمس محظوظ فهل يدري بحظه السعيد؟ ومتى ستطلبين منه أن يتزوجك؟»

وفجأة قبضت يدها على قطعة من عينات الصخور، وكانت يدها تتحرك بدون ارادتها، وتود ان تتفاهم بطريقتها الخاصة مع ذلك الرجل الساخر الذي لا يحتمل. ولكن ماذا كانت هذه اليد سوف تفعل بهذه القطعة من الصخر اذا قدّر لها ان ترفعها من مكانها فان ماريتا لم تدر الا بيد قوية أخرى وقد قبضت على رسغها للمرة الثالثة في تلك الليلة، ولكن في تلك المرة لم تبد أية رحمة

فقال لها آمراً:

«أسقطيها من يدك»

فأطاعته اليد القابضة على الصخرة. ولكنه ظلّ يقبض على يدها حتى بعد أن ألقت بقطعة الصخر.

وقنعت ماريتا باعتذار عندما ترك يدها، وشعرت بدورة الدماء تنتظم في ذراعها، وراحت تدلك جلدها المصاب وتقول وهي تحاول جهدها

ان تتغلب على مهانتها وانهزامها، وفي الوقت نفسه تبدي سخريتها:

«لا بد ان هناك مزيداً من الأشياء تريد معرفتها؟»

فنظر الى شفتيها المنطلقتين بقلق والى صدرها تحت البلوزة الدانتيل، والى ردفها تحت التنورة الطويلة ثم قال:

«نعم ولكني أشك أنك سوف تجيبي عليها. وعلى سبيل المثال هل مظهر جسمك يتناسب مع البراءة التي تظهر على وجهك؟»

قالت لتخفي خجلها:

«بالنسبة الى رجل قابلته اليوم للمرة الأولى أرى ان هذه الأسئلة تعد شخصية جداً».

وتعجبت كيف يقلقها رايان عندما يكشف لها ذلك الجانب الجاف الوعر من حياته! كانت قسماته الوسيمة تنبض بالحياة ويضفي الذكاء الذي يشع من عينيه اللماحتين ضوءاً باهراً.

ثم أخبرها انه يحب التجول سعيداً بحريته. أما النساء اللواتي يقابلهن وتعترضن حياته فيمضي وقتاً ثم ينساهن الى الأبد.

ولكن لماذا يقلقها هذا الرجل؟

ونظر رايان اليها ولم يشأ أن يقطع حبل أفكارها. فلما قصدت النافذة تركه الصخرة جانباً ثم تبعها.

فهمست تقول:

«هذا المنظر يأخذ بمجامع القلوب. انه يجعلك ترى المناظر عن بعد كبير».

«ولهذا السبب سمي هذا المنزل مبنى الأفق».

ثم أشار اليها بيده، بينما وضع يده الأخرى على كتفها، فأخذت ماريتا تجاهد كي تركز على المناظر الخارجية المحيطة بها وقال:

«الأفق يبدو من خلال الحقول والجداول».

فنظرت ماريتا مبهورة الى المناظر الجميلة ذات الألوان الخادعة، ثم همست تقول:

«لا شك أنك اخترت هذه الغرفة لمكتبك، فهي أفضل غرفة في البيت كله».

«أنا سعيد لانك تقدرين مزاياها وتتغاضين عن الفوضى السائدة بها».

فالتفتت قائلة:

«فوضى! لم ألاحظ ذلك إلا بعد أن نبهتني اليها».

فضحك وقال:

«انك امرأة نادرة الوجود. معظم بنات جنسك يحاولن إصلاح هذه الفوضى».

«وهل تسميها صديقتك فوضى؟»

ثم انتظرت رده وهي متوترة فقال:

«صديقتي جيولوجية أيضاً».

وكان ذلك رداً مقنعاً لسؤال ماريتا

«وهي مدرّسة في مدرسة ثانوية في سافولك».

وتساءلت ماريتا: لماذا اعترت المنظر الممتد أمامها العتمة فجأة؟ لا بد أن السبب غروب الشمس واختفاؤها وراء الأفق.

وفي غرفة الاستقبال أحضرت السيدة فيلد اليهم شراب الشوكولاتة الساخن، وكان رايان يجلس على مقعد وثير وقد مد ساقيه بتراخ بينما تقاسم والده الأريكة مع ماريتا.

ولم يبدل البروفسور تيودور ملابسه التي كان يرتديها قبل مغادرتهم الجامعة قد هرع عند وصولهم الى مخبأ في الحديقة، والى المنظار الخاص به، والى مراقبته للطيور.

ومن الغريب أن الأب والابن يختلفان الاختلاف الكبير فأحدهما يحب الوحدة ويلجأ الى الأماكن الخفية كي يراقب الطيور. أما الآخر فهو يطلب هذه الحرية لنفسه، الحرية التي يفضلها على كل شيء آخر وهو كذلك لا يتحمل القيود التي تمليها العواطف المتضاربة وعواطف النساء المختلفة وخصوصاً حب المرأة.

ولما جلست ماريتا بجانب هارفورد تيودور، وكانت أول مرة تجلس فيها قريبة منه منذ عملها معه، لاحظت بعض أشياء لم تلاحظها من قبل، فقد لفت نظرها أن اطار كمي قميصه قد بلي قليلاً وأصبحا في حاجة الى الغسيل. وكان حذاؤه ينقصه اللمعان. أما ملابسه فكان يرجع طرازها الى أحقاب مضت، ولذلك

شعرت أنه نزل من عليائه التي كان يحتلها في نظرها. تلك العلياء التي رفعه اليها مركزه ومنزلته العلمية وذهنه الحاد.

وفي الجانب الآخر كان ابنه يرتدي آخر صيحة من الملابس. والغريب أن قربه منها كان يشعرها انه بعيد المنال وهو لا يجعلها تشعر نحوه بأي تعاطف كما تشعر نحو والده، بل هو شعور مبهم من القلق وعدم الاستقرار.

ثم قدم البروفسور تيودور الى ماريتا مزيداً من الشوكولاته الساخنة وسألها اذا كانت تشعر بالراحة، واذا كانت تحتاج الى شيء، واعتذر لها لأنه، أهملها فلم يتمكن من مقاومة عدم ذهابه الى محيط الكائن في غابات ممتلكاته؟

وقال لها وهو منطلق في كلامه، وكأنه شرب شيئاً غير الشوكولاته، انه ممتن لقبولها دعوته لتمضي معه اجازتها، وشكرها لأن صحبتها تعد أكبر هدية له.

وقال لها إن وجودها معه، جعله يشعر بأنه أصغر من سنه بكثير، وانه يتمنى ألا تسرع بالعودة الى بيتها. وكان يتكلم بإخلاص جعلها تشعر بالقلق. رأت على نفسها ألا تخذله وأن تهتم اهتماماً عميقاً بأمر حياة الطيور الذي يوليه أهمية خاصة.

ثم قال:

«أظن أن هناك فارقاً كبيراً في السن بيننا وتفصلنا هوة سحيقة من السنين، وأعتذر انني تجرأت ودعوتك بصديقتي».

ثم راح يخاطبها كالأطفال وقال:

«وهل تعارضين في هذه التسمية؟ وهل أدعوك صديقتي؟».

حرك هذا التواضع في نفسها شعوراً قوياً جعلها تود أن تجهش بالبكاء. فهزت رأسها موافقة مما جعله يبتسم بارتياح. وبحركة لا شعورية نظرت ماريتا الى ابن البروفسور الجالس ماداً ساقيه في مقعده الوثير، مغمض العينين ملقياً برأسه الى الوراء، ويبدو أنه كان يستمع الى حديثها، اذ دلت على ذلك عضلات وجهه المتوترة وجمود شفتيه ثم قالت:

«ولماذا تسبب السنوات، بين أي شخصين، حاجزاً يمنع صداقتهما؟».

وبدت في عيني البروفسور نظرة أكثر من نظرة ارتياح، بل نظرة امتنان... ثم

أردفت تقول:

«ولماذا يحدّ السنّ الناس من لقاء بعضهم البعض في عالم الفكر والعقل؟ وخصوصاً اذا كانوا يتقاسمون الاهتمام بشيء ما».

وفجأة رأت الابن ينتفض وينظر اليها باهتمام وتفكير، ولاحظت أن عينيه الغائرتين تبحثان فيها عن شيء ما، ثم حوّل نظره الى والده ولكن الأخير كان مشغولاً بالنظر الى ماريتا، وكانت يده تتحرك بتردد كي يضعها على يدها وهو يقول لها:

«أنا سعيد لوجودك معنا يا عزيزتي».

وسمعت ثانية تلك الكلمات التي فاهت بها والدتها والتي ما زالت تطن في أذنيها عندما قالت: «لا بدّ انه مهتم بك لشخصك» فهل كانت والدتها على حق؟

وشاركت ماريتا البروفسور طعام الافطار، وكان يدوان رايان فرغ من تناول طعامه وذهب.

ثم سمعت البروفسور يقول:

«سأصحبك هذا الصباح الى المخبأ، وهناك جدول يجري في أراضينا وهو واحد من روافد أحد أنهار نور فولك، وعندما أذهب الى المخبأ أشعر بأنني محظوظ لرؤية الطيور التي تزور الأنهار والمستنقعات».

ثم استمرّ في تناول الطعام وقال:

«ربما تعرفين أن شرق انغليا، وخصوصاً هذا الجزء منها، تعد أفضل مكان في البلاد لمراقبة الطيور».

ان ماريتا تجهل هذه الأمور ولكنها هزت رأسها موافقة وقالت له انها تفهم الآن لماذا يعشق مضيفها منزله هذا.

فأمن على كلامها وقال:

«هناك سبب آخر وهو أن المنزل تكتنفه الذكريات الكثيرة».

وبدا في صوته الحنين الى الماضي، وراح يفكّر في تلك الذكريات الغالية. ولكنه نفضها عنه ورجع الى الحاضر ثم قال:

«أمارس هواية مراقبة الطيور وحدي، فأشعر بالوحدة وابني لا يشاركني هذه

الهواية، وزملائي بالجامعة يجهلون كل شيء عنها».

ثم قال:

«ولذلك أقدر اهتمامك يا ماريتا ويمكنني أن أتولى تدريب عقلك الشاب وتعليمه وأسقيه حب مراقبة الطيور قطرة قطرة حتى يتعادل هذا الحب مع الزمن، مع حبي له ولا تعلمين بفرط سروري لبقائك معي أثناء هذه الاجازة».

شعرت ماريتا بمسؤولية العمل الذي ألقت على نفسها ان تقوم به، ولم تقل أن تخبر البروفسور أنها ليست لها ذاكرة قوية تسجل الأشياء فور رؤيتها فكانت لا تذكر الأفراد اذا التقت بهم للمرة الثانية، فما بالك بالمخلوقات البرية الموجودة في عالم الطيور؟

ولما وصلت الى المخبأ وجدته مختفياً بين الأغصان وتحت أوراق الأشجار ويمر من جانبه جدول ماء، وسمعت حوله أصوات الطيور تغني سعيدة في ساعات الصباح الباكر الندي.

وكان المخبأ يكاد لا يتسع لشخصين، مبنياً من مواسير الألومنيوم والقماش السميك الذي صنع منه غطاء الباب يرفع كلما دخل شخص فيه أو خرج منه وفي الباب رأت ماريتا ثقب الباب.

ثم قال لها هارفورد:

«انني أضطر الى البقاء أحياناً لعدة ساعات».

«وماذا تفعل لتناول الوجبات؟»

هز كتفيه وقال:

«عندما أتذكر أحضر معي بعض الشطائر وزجاجة من الماء، ونادراً ما أسمح لأحد أن يأتي الى هنا لدى قيامي بالمراقبة».

ثم ابتسم وقال وقد برقت عيناه:

«ان لي الآن رفيقاً يؤنسني في وحدتي، ولن تتكلم إلا همساً».

تملكها الخوف، فهل ظن البروفسور أنها ستبقى معه أثناء هذه الساعات الطويلة وبدون كلام؟ ومما زاد من خوفها انها وجدت انه زود المخبأ بمقعد لها فرأت مقعدين صغيرين يمكن طيهما، ورأت وسادة على أحدهما، فقدرت أن يكون هذا المقعد لها.

ولكن يظهر أن بقاءها في المخبأ هذه المرة لن يطول. فقد قال لها:

«ان لدي اثنين أو ثلاثة من الطيور تحت المراقبة. وهناك واحد أهتم به اهتماماً خاصاً. فصغاره التي تخرج من البيض تبقى مدة طويلة في العش على غير عادة».

ثم اني اراقب العصفور المسمى متسلق الأشجار الذي جاء متوغلاً في الأرض بشكل عجيب فهل سمعت عن ذلك الطير؟

هزت ماريتا رأسها بالنفي فأكمل يقول:

«من الصعب رؤيته، فهو يأتي متخفياً بلونه البني الذي يشبه قشر الجذوع التي يتسلقها. أما صدره فلونه أبيض، وهو الطير الوحيد الذي يعيش في اليابسة ويتقوس منقاره».

وانقضى الصباح وأخذ البروفسور خلاله يكتب ملاحظات مفصلة ثم رفع المنظار عن عنقه وأعطاه لماريتا لمراقبة تحركات الطيور وقال لها:

«لن أرهقك بذكر اسماء الطيور اليوم، فلدينا الوقت الكافي للتفسير في يوم آخر».

ثم وضع يده على كتفها وقال:

«وفي كل حال فأنت موجودة هنا معي. طالما تمكنت والدتك من الاستغناء عنك».

لم يظهر رايان على مائدة الغداء، اذ كان مشغولاً، حسب قول والده في كتابة التقرير الخاص برحلته الأخيرة الى الخارج. ثم قالت ماريتا:

«ان له صديقة جيولوجية مثله كما اخبرني».

«تقصدين دورين فورستر؟ نعم انها تحبه وتود أن تتزوجه، لكن ما فائدة زواجه وهو يهتم بنفسه فقط».

ثم قالت وهي تتعجب كيف تلتفت الى هذا الموضوع الذي لا يخصها:

«واذا أحبته امرأة حباً كبيراً هل يكفي ذلك كي تغيره وتجعله أقل أنانية؟»

ضحك والده وقال:

«تلك فكرة غريبة عن تأثير النساء على الرجال يا عزيزتي، وهذا ما يدل على سذاجتك».

ثم أكمل الأب يقول:

«لا انه ليس في حاجة الى حب امرأة، فقد تربى بدون أم».

ثم كفّ عن الكلام وتنهد ورجع يقول:

«قد أمضى كل سنوات حياته الاثنين والثلاثين بدون ان يعرف رقة المرأة ورعايتها. واني لا أرى مانعاً في ان يكمل حياته على هذا المنوال، فهو لن يتغير أبداً. أعرف ولدي جيداً».

وبعد برهة قال هارفورد:

«سوف أخرج الآن لأنني مدعو الى اجتماع يضم زملاء لي من هواة مراقبة الطيور، وسوف أصحبك ذات يوم الى مثل هذه الاجتماعات».

«ذات يوم...»

وكان الجو قد تغير فظهرت السحب ولكن الشمس ظلت تسطع من حين لآخر. فأخذت ماريتا تتجول في الحديقة، ومرّت على مخبأ البروفسور، فنظرت اليه باحترام وكأنه بداخله.

وشعرت بهدوء وسلام الى جانب الغدير. كانت الطيور تحط على الصخور وسط الماء أو تغني على أغصان الأشجار فهل يأتي الوقت وتصبح هي خبيرة البروفسور في معرفة أنواع هذه المخلوقات الجذابة؟

ولما رجعت من جولتها رأت السيدة فيسك آتية من المنزل في يدها صينية. وهي تقول:

«أتيت بالشاي لك يا آنسة نيوبل. أما الدكتور تيودور فقد ذهب ليأتي بالمقاعد وبالمنضدة قال انه رآك من نافذته وأنت تتجولين، فاقترح أن آتي بالشاي اليك».

اذن فطوال الوقت حين كانت تظن أنها تحررت من وجوده، كانت في الواقع تحت مراقبته.

فابتدأت ماريتا تقول:

«هذا شعور لطيف منه».

ولكن سيدة فيسك أكدت لها انه شيء بسيط ثم قالت:

«من النادر أن أتمكن من اقناع الدكتور تيودور ان يغادر مكتبه، وهكذا والده،

فلا أتمكن من جعله يعود الى المنزل».

ثم ظهر الابن حاملاً منضدة ومقاعد من النوع الذي يطوى وقال وهو يفرد المقاعد لها:

«اذا كنت تتساءلين لماذا أفرض نفسي عليك أقول انني لم أشأ أن أترك صديقة والدي تتناول الشاي وحدها».

فردت عليه بحدة:

«لا داعي أن تكلّف نفسك القيام بالترحيب بي وبحبتي».

فابتسم وقال:

«عندما رجعت الى هنا استريح، واكتب التقرير عن عملي لم أكن أتوقع أن يأتي والدي بصحبته فتاة جميلة مثلك. وكان قد أنذرني انه سوف يأتي بصديقة له، وبما أني أعرف ذلك الطراز من الناس الذي يصادفه لم أتمكن من إخفاء دهشتي عندما ظهرت على عتبة باب غرفة الطعام».

وتذكرت ماريتا تعبير وجهه عندما وقع نظره عليها لأول مرة حيث ظهر في عينيه الخوف بجانب الدهشة.

وطلب منها أن تصبّ لها الشاي ووجدت مع الشاي فطائر الفاكهة ومربى المشمش المصنوع في المنزل بجانب بسكوت الشوكولاتة. قالت ماريتا كي تنهي الصمت الذي ساد جلستهما وكي تغذي فضولها:

«أظن أنك رجعت لتوك من رحلة في الخارج؟»

فهز لها رأسه وكأن الأمر لا يعنيه وقال:

«انها رحلة من رحلاتي الكثيرة في أنحاء العالم».

«قال لي والدك انك تستمتع بها، فهل هي جزء من تلك الحرية التي تحبها؟»

ثم لاحظ مغالاتها في الابتسام فرد عليها ببرود قائلاً:

«هل تسخرين مني؟»

فلم تجبه وظلت ساكتة. ثم أكمل كلامه يقول:

«قولي لي ما هي الحرية التي يتمتع بها رجل ربط نفسه بزوجة وأولاد؟»

فهتفت تقول:

«لم أقابل، من قبل، رجلاً أنانياً وقاسياً مثلك وعلى كل حال فان ما يطلبه معظم الرجال من الحياة زوجة وأسرة».

«ربما اختلفت عن معظم الناس، وربما أردت أن أتمتع بحريتي وذهبت في أي وقت والى أي مكان شئت، فان فكرة التخلي عن حريتي لأتخذ لنفسي زوجة محبة تطوقني بذراعيها وتقيدني بطرق تعسفية هي فكرة مكروهة لدي».

هل كان يعني ما يقول؟ هل كان صادقاً في كلامه أم أراد أن يثيرها؟

ثم أخرج حصاة من جيبه وراح يفحصها باهتمام وتمعن، فتمكنت ماريتا من قراءة تعبيرات وجهه، وكأنها تنظر في صفحة كتبت بلغة غريبة.

وشعرت باشمئزاز من كلامه لكنها سألت نفسها بأي حق تنصب له الميزان؟ فهو مجرد ابن مضيفها وبالتالي لايهمها في شيء.

ثم نظر اليها وأعاد نظره الى الصخرة في يده وسمعها تقول:

«أظن من رأيك أن المرأة لا تفقد شيئاً بالزواج بل تكسب كل شيء منه».

«نعم هذا هو رأيي. وعلى سبيل المثال لن تخسري حريتك بالزواج بل تحصلين عليها. فلن تضطري الى العمل ثانية. ويمكنك ان تبقي مؤهلاتك محدودة كما هي الآن، وتدعي عقلك يعلوه الصدأ فتهبطين بقواك العقلية، كمعظم النساء».

فقاطعته بقولها:

«ذلك اذا تزوجت. ولكني ذكرت لك من قبل أنني لم أجد بعد الرجل الذي يجعلني راغبة في الزواج.. واذا كان الرجل الذي قدّر أن أتزوجه فقيراً فسأخرج الى العمل، أما اذا كان غنياً فسألتحق بفصول التعليم وأدخل الامتحانات لأحصل على المؤهلات التي تخلّيت عنها عندما مات والدي».

«اذكري لي سبب مجيئك الى هنا؟»

فنظرت اليه بدهشة وقالت:

«لأن والدك دعاني. لماذا تقطّب حاجبيك؟ ألا تصدقني؟»

«أصدّق ما تقولين ولكن لماذا دعاك أبي؟»

ففكرت لبرهة وقالت:

«بصراحة لا أعرف لذلك سبباً. كان يأتي الى المعمل مرّات كثيرة عندما أكون

هناك ويكلمني ويقترني مع أني مجرد مساعدة».

ثم ترددت وقالت:

«في يوم كنت أراقب أحد الطيور من نافذة المعمل وتساءلت عن اسمه وكان والدك هناك فأجابني. وبعد ذلك لاحظت اهتمامه الكبير بي. فربما وجد في إمكانيات تؤهلني أن أكون زميلة له في مراقبة الطيور».

رفع حاجبيه وقال وكأنه يحدث نفسه.

«لا بدّ أن هناك سبباً».

أرادت أن تفعل شيئاً حتى تهدىء من أعصابها المتوترة. فجمعت أدوات الشاي ووضعتها على الصينية، وودت أن يغادر رايان الحديقة ويذهب فهذا الرجل يضايقها ويجعلها قلقة.

وأرادت ماريتا أن تكسر حدّة السكون الذي ساد جلستهما فسألته قائلة:

«أين تذهب في رحلاتك الى الخارج؟»

فتنبه رايان وقال:

«الى كل أنحاء العالم. أذهب الى الأحراش والى الصحارى، وأخوض المستنقعات وأتسلق الصخور أفحص عواصف التراب والرمال، وأزور حفارات آبار البترول أثناء العواصف وفوق مياه البحر الهادرة».

فكرت ماريتا في المخاطر التي تعرّض لها وتغلّب عليها. وتعجبت لتعدد جوانب شخصيته، وبناء جسده المتين الذي يعكس نوع حياته. فهل يمكن لأي امرأة أن تجعله يحتاج اليها ولا يمكنه الاستغناء عنها؟ والشعور بأنه ليس متكاملاً بدونها بعد ذلك؟

الجواب على هذا السؤال: لا. وكان هذا الخاطر يقلقها كثيراً. ثم قام واعتذر لها لتركها وحدها وشكرها على وجودها معه. وبينما كان يدخل الى المنزل، توارت الشمس خلف سحابة فبدا العالم في نظرها تلك اللحظة مظلماً.

٣ ـ الساخر يفاجئها

رجع البروفيسور تيودور الى المنزل وقت العشاء. وكانت ماريتا قد بدلت ملابسها ووقفت في نافذة غرفة الاستقبال حائرة لا تدري ماذا تفعل. ثم فتح الباب فشعرت أن قلبها يخفق فجأة ظناً منها أنه رايان، ولكنها رأت والده

وكان يمسك رزمة في يده. فقصد النافذة حيث تقف ماريتا وبدون أن ينطق بكلمة، قدم اليها تلك الرزمة قائلاً بابتسامة:

«افتحيها».

فتحت الصندوق ثم شهقت بشدة وقالت له:

«منظار مكبر! ولكن لماذا؟»

«ان كل مراقب للطيور لا يمكنه ممارسة هوايته بمهارة بدون منظار يا ماريتا».

ثم بدأت تقول:

«ولكني لست...»

ولكن ماذا تقول له؟ هل تقول: أنا لست هاوية مراقبة طيور حتى أستخدم هذا المنظار!

واكتفت بقولها:

«انه رائع منك. ولكني في الحقيقة...»

فقال لها بحزم:

«لا بد أن تقبليه اذا كنا سنراقب الطيور معاً. يمكننا أن نتقاسم المخبأ ولكن لا يمكننا الاشتراك في منظار واحد. يجب أن تقرأي التعليمات أولاً ثم أرشدك الى

طريقة استعمال المنظار. قد تبدو معقدة في البداية ولكن عندما تجيدين تركيزه بسرعة على الهدف، لن تجدي صعوبة بعد ذلك».

ثم نظر الى الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة وقال:

«يجب أن أغتسل وأبدل ملابسي للعشاء. وقد اسرعت اليك أولاً لأجدك».

ثم نظر الى هديته وهو سعيد كالصبي الصغير وقال:

«هل أنت سعيدة بها؟»

«انها رائعة يا بروفسور تيودور وأنا فرحة بها لأنها جاءت كمفاجأة لي».

فرح لفرحها الظاهر، ثم فتح الباب ودخل رايان، ولكن ماريتا تمالكت نفسها عندما سمعت البروفسور يقول:

«يجب أن تناديني بهارفورد يا ماريتا. فنحن صديقان. أليس كذلك؟»

وهز البروفسور رأسه محيياً ولده، وتمتم بأنه سوف ينضم اليهما بعد قليل. ثم أغلق الباب وراءه ـ فساد صمت طويل. وراحت ماريتا تتفحص المنظار وتلمسه برقة. ولا تدري ماذا تفعل به. وأخيراً رفعت رأسها فرأت رايان وقد ارتدى ملابس عادية هذا المساء. بعيدة عن الرسميات.

وارتعشت ماريتا من دقات قلبها عند رؤيته، وشعرت بأن كل عصب في جسمها يرتجف ويهتز عندما تقابلت عيناه الرماديتان بعينيها. ثم قال لها:

«الآن أننا نستخدمان الأسماء المجردة الآن؟»

ردت تقول:

«نعم نستخدم الأسماء مجردة. ولا بد أنك سمعت حديث والدك معي وأنا متأكدة أنه لا يفوتك شيء».

ثم عبر الغرفة واقترب منها فشعرت بأن تنفسها أصبح سريعاً وسطحياً ثم قال لها:

«ويبدو كذلك أنها لا تفوتك بعض الحيل».

«أنا لا أفهم ما تعنيه بذلك».

فقال وهو يشير الى المنظار:

«انه يخصك ولا يخص أبي».

«وهل ظننت أنني طلبت من والدك شراءه؟»

فقال هازئاً:

«لا شيء في الدنيا أصبح مستقيماً وعادلاً. فللمرأة طرق كي تحصل على ما تريد من الرجل بدون أن تطلب».

«ولكنك مخطيء في ذلك».

وكان هذا الرجل ينقصه الذوق ولا عجب أن يختلف مع والده، فمن يمكنه أن يعيش في وفاق مع رجل مثله؟

فقالت له والغضب يتملكها:

«انك تعني بكلامك أشياء أخرى تلطخني بالتهم يا دكتور تيودور وأنا أحتج على ذلك. انك تبني اتهاماتك على أوهام، فليس هناك من الحقائق ما يمكنه أن يكون قاعدة لهذا الاستنتاج».

فقال لها وهو يصب لنفسه بعض الشراب:

«انك تتكلمين كالعلماء فتذكرين الحقائق، من علمك ذلك؟ هل هو والدي؟»

«علاقتي بوالدك ليست حميمة كما تظن. وتذكر أنني أعمل بين العلماء».

«نعم ولكِ منهم حبيب؟»

فصححت ما يقول:

«بل صديق!»

رفع أحد حاجبيه ورجعت تقول مؤكدة:

«نعم صديق. أليس من الضروري يا دكتور تيودور أن يستقي العلماء الحقائق من مصادرها الصحيحة».

فرد بسرعة قائلاً:

«لا يحدث ذلك دائماً. قد يضطر العالم أحياناً أن يفترض نظريات قبل أن يضعها للتجارب ليكتشف حقيقة علمية يا ماريتا».

واستعذبت اسمها على شفتيه! وتحرك شيء في صدرها فجأة كالطير المذعور وهو يطير هارباً. وسمعت اسمها لأول مرة وقد بدا غريباً وله معنى جميل.

ثم سألها سؤالاً عابراً:

«وهل تقبلين هدية والدي؟»

«ولم لا؟ أعطاها لي كجهاز وليست هدية».

قال وهو متكيء على المنضدة:

«جهاز؟ ها قد عدنا الى العمل ثانية. وهو جهاز ثمين يا ماريتا».

وخفق قلبها. فهل ستقوى على أن تناديه باسمه مجرداً؟

«هل في مقدورك أن تقدري ثمنه؟»

فردت تقول:

«سوف أتركه عندما أمضي من هنا».

«وتجرحين مشاعر والدي؟»

«أعطاه لي لمراقبة الطيور وقال اننا لن نتمكن من استخدام منظار واحد. وعندما أذهب لن أحتاج اليه».

«بل سوف تحتاجين اليه، وتعرفين ذلك جيداً، وبما أنه أنفق المال والوقت في تدريبك كي تشاركيه حماسته في دراسة عادات الطيور وأماكن معيشتها. فاذا رجعت الى منزلك ينتظر منك أن تستمري في اهتمامك بها، فمما لا شك فيه أنك سوف تعودين الى هنا في فترات منتظمة لتشاركيه هوايته».

ثم أضاف وقد استهوته فكرة ما:

«هذا اذا لم تشاركيه شيئاً آخر».

ولم تعر ماريتا هذا التعليق اهتماماً. فقد ألهاها أن مجرد ملحوظة عن العصفور الأسود الذي رأته خارج نافذة مختبر الجامعة منذ أسابيع قليلة جعلتها مقيدة تجاه رجل كالبروفسور تيودور.

اصطحب هارفورد ماريتا الى المخبأ في اليوم التالي، علمها كيف تستخدم المنظار وأراها التليسكوب وحامله ذا الثلاثة قوائم، اشتراه ليراقب الطيور به.

وقال لها

«التليسكوب لن ينفعك كمبتدئة فهو يتطلب أن تركزي بسرعة على الطيور

القرية تسبياً».

ثم لمسه بإعزاز وتقدير وقال:

«كلفني الكثير من المال».

المال... انه الشيء النافع الذي لا يفتقر اليه كلّ من الأب والأبن.

ثم قال هارفورد:

«الصمت والهدوء أحسن الوسائل في مراقبة الطيور. يضاف اليهما الصبر».

ثم قال لها بعد برهة:

«أنصتي الى هذا الطير الذي يرفرف... وهذه هي صيحة استغاثته لخطر ما. أما في الربيع خلال موسم التزاوج فيصدر منه صوت غنائي، وفي غير ذلك الموسم يكون صوته كصوت الناي. وفي الوقت نفسه انه قلق يتضايق لأتفه الأشياء».

ثم وجه منظاره من خلال الثقب في باب المخبأ وقال:

«ها هوا لونه رمادي يميل الى اللون البني وصدره أفتح لوناً ومنقط بنقط بنية تميل الى الرمادي. فهل تظنين انك سوف تتعرفين عليه بنفسك في المرة المقبلة؟»

وحاولت ماريتا أن تميّز الطير من بين غيره من الطيور التي كانت تطير حوله وتروح وتجيء عبر الغدير، لكنها فشلت ثم قالت:

«انني - حسناً - انني...»

أما البروفسور فلم يخدع، فقد كان متمرساً في فن مراقبة الطيور حتى أنه لم يصدق أنها نجحت في التعرّف على هذا الطير الذي يسألها عنه.

ثم سمعته يقول:

«والآن هل يمكنك رؤيته؟»

وفي تلك اللحظة أمكنها رؤيته فصاحت تقول بإلحاح:

«نعم - نعم انني أراه الآن».

فوضع ذراعه حول كتفيها عندما نظرت اليه ورأى في عينيها شبح الانتصار لأنها تعرفت على الطير لأول مرة في حياتها.

ثم نظر هارفورد اليها وكانت حماسته تعادل حماستها، وعيناه تبرقان كعينيها، وفمه، تعلوه ابتسامة سعيدة. وكان تعبير وجهه لا يعكس العواطف

الأبوية أبداً. فأشاحت بوجهها وعلى محياها نظرة عابسة.

ومرّ الصباح ولكنه اقتصر على نجاحها في التعرّف على هذا الطير فقط، ثم قالت له وصوتها يفتقر الى الثقة:

«اذا كان في إمكاني أن أقرأ كتباً،

«كتب!»

وبدا سعيداً باهتمامها. ثم أردف يقول:

«لدي الكثير من الكتب عن الطيور، سأختار لك أسهلها كبداية ثم تتدرج الى الأكثر تعقيداً».

ثم استدار اليها وقال ثانية:

«أنا سعيد جداً لاهتمامك بمشاركتي حماستي».

وبعد ظهر ذلك اليوم وجدها رايان تجلس في غرفة الاستقبال غارقة بين الكتب التي تعالج موضوع مراقبة الطيور، وكان البروفسور قد رجع ثانية الى عمله، ولم يشأ أن يرهقها، كما قال، بأن يصطحبها معه ثانية الى المخبأ.

ووجدت على غلاف أحد الكتب صورة بومة تبدو على وجهها الحكمة والمعرفة، بعينيها الكبيرتين اللتين تنظران الى المرء وكأنها تلومه، وقالت لنفسها: أراهن أنني لن أتعرف على البومة اذا رأيتها فكيف يتمكن البروفسور تيودور من التعرف على أيّ طير بواسطة عينيه فقط؟

وكان رايان قد نزل لتناول الشاي وضحك عندما رأى الكتب متناثرة حولها، وكانت ضحكته كلها سخرية.

وقال لها:

«أي منا تحاولين التأثير عليه؟ هل هو والدي بإظهار حماستك وتكريسك له أم أنا بمحاولتك العزم على إظهار استعدادك للتعلم، وبذا تكونين أهلاً لأن تكوني صديقة بل أحد أفراد الأسرة؟»

فنظرت اليه وقالت:

«أنا لا أحاول التأثير على أحد وخصوصاً أنت. وإلاّ كنت أقرأ كتباً في الجيولوجيا، أليس كذلك؟»

فاعتدل في جلسته وقال:

«انك تغريني بأن أحضر لك عدداً من الكتب عن رفوف مكتبي. وأفرضها عليك. وبعد فترة من الزمن أمتحنك فيما اكتسبت من معرفة جديدة».

جيولوجيا! غضت من نظرها فلم تشأ أن يرى مدى اهتمامها بهذا الموضوع.

ثم سمعته يقول:

«فماذا فعلت هل يروق لك هذا؟»

ردت عليه بعدم اكتراث.

«تعطيني كتباً في الجيولوجيا لأقرأها! انني أقرأ هذه الكتب وأدرس حياة الطيور لأرضي والدك».

«وهل معنى ذلك انك لا تودين إرضائي؟»

«وهل هناك سبب لذلك؟»

ووقع نظرها على صورة نسر. ولكن حواسها كانت تلتقط الحركات السريعة وتوتر العضلات وغضب الرجل الذي كانت تكلمه.

ثم قرأت ماريتا عن النسر: لا شيء يمكن مقارنته في دنيا الطيور بالنسر الذهبي من حيث العظمة والرقي، فهذا الطير القناص العظيم بجناحيه الكبيرين المنبسطين ينقض من السماء على فريسته بسرعة فائقة لا تصدق، وكأنما وقعت في كمين، ثم يأخذها ويأكلها.

ارتجفت ماريتا عندما تحرك رايان، ومال على مقعده واسترخى كالطيور الكاسرة.

وفي أثناء العشاء أعلن هارفورد نيته دعوة أصدقائه من محبي مراقبة الطيور الى منزله، على أن تبدأ هذه الدعوة باجتماع يليه تناول القهوة والتداول. وقال في ذلك:

«سيكون عددنا حوالى خمسة عشر هاوياً»

ثم نظر الى ماريتا وعاد يقول:

«ويسعدني يا عزيزتي أن تتنازلي وتلعبي دور المضيفة».

وبالرغم من أن العشاء كان في أوله شعرت ماريتا أنها فقدت شهيتها

فوضعت على المائدة الشوكة والسكين ثم تناولت كوب الماء. ولكن الماء المثلج لم يغير ولم يهدىء من اضطرابها.

فاذا لعبت دور المضيفة معناه أنها تتساوى مع هذا الرجل. ومهما أمضت في منزله من وقت واندمجت في حياته العائلية فهو ما زال بالنسبة اليها في منزلة المثل العليا التي لا يمكن الوصول اليها. ثم ترحب بضيوفه وكأنها تنتمي الى هذا البيت هي ماريتا نيوبل مساعدة المعمل الصغيرة كما يسميها ابنه الساخر!

ثم قالت:

«ولكن يا بروفسور - يا هارفورد - انني لا أصلح لاستقبال ضيوفك».

ثم قال رايان:

«هل تشكين في حكم والدي يا ماريتا؟ وهل تقولين بطريقة ملتوية انك لا تثقين في مقدرته على تقدير قيمة الشخص. فوالدي عميد كلية في الجامعة ويفوق جميع العقول، وماهر لدرجة أنه يشعر بالذكاء الكامن في أعماق مجرد مخلوق تافه مثل مساعدة المعمل الشابة، ويرى فيها إمكانيات للتعلم لم تكتشف بعد».

ونظر من طرف عينيه الى والده وكأنه يحاول أن يرى تأثير لحديثه له.

ونظرت ماريتا الى الأب ثم الى الابن. ورجعت قروناً الى الوراء. وكأن الرجلين انهمكا في عداء عائلي مرير لاهوادة فيه، لا ينتهي إلا بالمبارزة ثم الموت. ولكن من منهما سيقدر له البقاء؟ ومن منهما يخضع لسيف الآخر؟ لا يمكنها التنبوء بذلك... ثم أعترتها رجفة.

والتهبت وجنتا البروفسور ولم يكن ذلك من تأثير الشراب ثم تجاهل إهانة ابنه كي يبعده عنه.

«يؤلمني أن تقللي من مقدرتك فانني سأتشرف اذا وقفت بجانبي ومعي كي تستقبلي ضيوفي».

يتشرف: ان طيبة البروفسور وكرمه وروحه السمحة تدهشها ثم قالت له: «العكس هو الصحيح».

ولكن يده المرفوعة أسكتتها، وسمعت ابنه يقول ساخراً:

«يا إلهي انك تقللين من قيمتك».

وهذا يعني، كما ظنت ماريتا، وهي ترى النظرة القاسية في عينيه، أنها قطعاً تظن نفسها في مستوى منخفض اذ هي تعد نفسها في مستوى أقل من مستوى والده.

«اذا كان رأيك فيَّ سيئاً لهذه الدرجة، واذا كنت تعتبرني تحت مستوى تذكيرك ألك ابني وأنك لا بد وارث بعض صفاتي السيئة».

وجاء رد هارفورد، بالرغم من أنه كان هادئاً، منطوياً على طعن وهجوم، وتعجبت ماريتا وهي تنظر الى الأب ثم الى الأبن: لماذا يكره كل منهما الآخر في هذا الجو؛ ولماذا يستخدمانها كسلاح؟

ثم قالت له بحزم وبلهجة التحدي:

«كم هو رائع أن ألعب دور المضيفة لك ويشرفني أن تطلب مني ذلك».

ظهر الحقد والغضب الجامح في عيني الأبن فقد انتقلت ماريتا الى صفوف الأعداء.

وبعد العشاء خرج رايان فسمعت ماريتا وهي جالسة في غرفة الاستقبال مع هارفورد صوت السيارة وهو يهدر، فشعرت بموجة مفاجئة من الهبوط والتعب جعلت عقلها يخبو وحواسها لا تستجيب. ومن العجيب أن يرد هارفورد على سؤالها الذي لم تشأ أن تسأله.

«لا بد أنه ذاهب للقاء صديقته. فهما غالباً ما يلتقيان على موعد يحدد من قبل. وكانت تسكن هذه المنطقة الى أن وجدت وظيفة مدرّسة في المدينة المجاورة. وتعتبر آخر صديقة له من سلسلة صديقاته الكثيرات.

كان هارفورد يتكلّم بغضب عن عدم وفاء ابنه لنسائه.

ثم قالت ماريتا:

«قال لي انه يذهب في سبيل عمله الى أماكن بعيدة».

«انه قلق بطبيعته. ولذلك كان الفضل لعمله أن يمده بتغيير الجو المحيط به وهو الشيء الذي يحتاج اليه كما يحتاج الى التغيير الدائم في صحبته للنساء».

ثم نظر الى ساعته ورجع يقول:

«أنا أشك في رجوعه قبل الساعات الأولى من الصباح وربما في الصباح».

ولامت نفسها لأنها تركت ذكر رايان يقلقها لمجرد أنه سيمضي الليل كله مع صديقته.

وسمعت هارفورد يقول:

«سأذهب الى مخبأي يا ماريتا. فهل تأتين معي لمراقبة تصرفات الطيور عندما يقترب المساء؟»

وأخذا يتشاركان في المراقبة معاً في الغابة بجانب الغدير وكانت ماريتا تجد صعوبة في منع أفكارها من التساؤل عن رايان وأين يكون الآن. كانت الصورة التي تخيلتها عنه وهو بين ذراعي صديقته تثير فيها الكره. فأخذت تتململ مما جعل هارفورد يقول لها انها حرة. فاذا أرادت أن تغادر المخبأ وتتجول في الأراضي المحيطة به يمكنها ذلك شرط ألا تفزع الطيور وتجعلها تطير هاربة.

وكانت رائحة الليل وزهوره تعبق الجو خارج المخبأ. وبرودته تجعل ماريتا ترتجف وهي مرتدية ثوباً خفيفاً. ولذلك رجعت الى المنزل تواً. وأثناء صعودها السلم كانت دقات قلبها تطغى على وقع أقدامها. وطرأت لها فكرة. ان رايان تيودور في الخارج. وغرفة مكتبه خالية فلماذا لا تصعد اليها لترى المنظر المحيط بالمنزل منها؟

ودفعت الباب وتلفتت حولها بخوف وكأنها تنتظر أن تجد شبحاً في الغرفة على الرغم من أن الغرفة كانت خالية شعرت بوجود صاحبها فيها فالهواء كله ممتلىء بشخصيته المعتدة بنفسها، وبقسوته وجاذبيته ورجولته. وتنادي كذلك بثقافته. فالرفوف تمتلىء بالكتب العلمية وعلى مكتبه تناثرت الأوراق التي دوّن فيها ملحوظاته. وأخذت ماريتا منظاره وعلقته في كتفها حتى تؤمن سلامته ثم قامت لترتكز على النافذة وتصوّب المنظار نحو الخط الذي يحدّد البحر لكنها وجدت أن البحر اختفى وراء الأفق.

ورأت تحتها عن قرب الغابة بجانب الغدير، وفي مكان ما بين الأشجار كان

البروفسور يراقب الطيور، ثم سمعت وقع أقدام قوية على السلم تدلّ على أن صاحبها رجل. وأنه يقصد من غير شك غرفة المكتب، فليس في الدور العلوي حجرات غيرها. تجمدت ماريتا وحبست أنفاسها. هل هو هارفورد جاء يبحث عنها؟ لا شك أنه ليس ابنه. واستدارت بقوة عندما فتح الباب وسطع النور. أما المنظار الذي كانت تعلقه في كتفها فقد ارتفع في الهواء ثم اصطدم بالميكروسكوب المصوّر على المنضدة وعند اصطدامه بصوت رهيب سقطت إحدى الشرائح الزجاجية الصغيرة التي تستعمل في التجارب على الأرض وتفتت، ثم سمعت ماريتا صوت ارتطام فالتفتت وهي لا تقوى على التنفس لترى الكاميرا التي كانت مربوطة على رأس الجهاز تسقط على المنضدة. فالمنظار في حركته القوية مزق الأربطة التي تربط الكاميرا بالميكروسكوب وجعلها تهوي...

ولم تقو على مواجهة نظرات صاحب الغرفة أو غضبه. قرأت في عينيه غضباً ملتهباً. نظرت عيناه اليها أولاً ثم الى المنظار ثم الى التلف الذي سببته.

وبعد ذلك بردت نظراته وأصبحت في درجة الحرارة التي تسبب حروق الصقيع، وأطلق السباب الذي جعل ماريتا تخاف وترتعد، ثم عبر الغرفة الى المنضدة التي وضع فوقها الميكروسكوب المصوّر والتقط الكاميرا ولما أخذ يفحصها وينظر اليها لم تقو ماريتا على التحرك وجف ريقها وتشابكت يداها في يأس وضعف تنفسها.

«نعم، انها تلفت ولا بدّ من إصلاحها».

ثم التفت اليها فتراجعت تحت تأثير نبرات صوته التي تشبه السوط.

وأردف يقول:

«ومن حسن حظك هناك متجر في البلدة يمكنه أن يمدنا بالجزء التالف ولكن سوف يكون ذلك سبباً في تأخير عملي بضعة أيام».

فهمست تقول:

«شريحة الزجاج كسرتها».

ثم انحنت تجمع القطع المتناثرة لكنه نهرها قائلاً:

«اتركيها، فلن ينالك إلا جرح يدك وسوف يصبّ والدي غضبه عليّ، وأنا أكره أن يتهمني بأنني كنت السبب في جرح مساعدته الصغيرة».

فقالت:

«انني - انني آسفة. فلم أتسبب في ذلك عن عمد. وعادة أكون حريصة جداً في تناول الأجهزة التي أستعملها بكثرة في عملي. كانت حادثة مفاجئة غير متوقعة».

فرد بخشونة يقول:

«كل الحوادث غير متوقعة. ولكن كان يجب أن تقدري فأنت على مستوى أعلى من الفتاة المتوسطة الذكاء. أليس كذلك؟»

وكرهت سماع صوته الغاضب فارتفع صوتها مع الدم الذي صعد إلى وجهها وقالت:

«لم ألمس الكاميرا أبداً بل كان المنظار».

«بل الذنب هو التجسس على العمل الذي أقوم به. وجودك هنا بدون اذن وذلك واضح من الطريقة التي استدرت بها لدى دخولي».

فردت تقول:

«أعترف بخطأي. وكان يجب عليّ أن أستأذن أولاً في الدخول لكنك كنت في الخارج... لم أتجسس على عملك أبداً. فكيف تتهمني بهذا الأمر الخطير؟»

«لأن هذا التجسس يحدث كلّ يوم. ويسمى التجسس الصناعي ومن يدري فقد يكون تحت تصرفك البريء، الذي يبدو عليك، انتماؤك الى شبكة من التجسس الصناعي. أنا أعمل في شركة تحرص على المعلومات التي يجمعها موظفوها وتبقيها سراً خاصاً بها».

«أنا آسفة لأنك لا تحسن الظن بإخلاصي. وتعتقد أنني دنيئة أقوم بافشاء أسرارك التي، حتى إن قدر لي أن أراها، فلن أفهمها. وآسفة للتلف فسوف أدفع ثمنه. وعندما تعرف التكاليف أخبرني بها حتى أكتب لك شيكاً بالمبلغ».

فنظر اليها لفترة طويلة وقال:

«آه لو تعرفين القيمة الغالية لهذا الجهاز! وهو يخص الشركة التي أعمل فيها».

رفعت رأسها تحدياً وقالت:

«مهما بلغ المبلغ لاصلاحها ما زلت أصرّ على تسديده... وأنا أسفة لدخولي هنا بدون دعوة. قال لي والدك انك ستغيب هذه الليلة لمدة طويلة وقال لي كذلك انك ستقابل صديقتك فربما لن ترجع قبل الصباح».

«لم يعطك والدي معلومات صحيحة. ذهبت الى الحانة لأتناول مشروب».

لاحظت مارينا أنه يرتدي ملابس عادية وكان بنطلونه القديم ذو القماش السميك يضاعف من رجولته فيجعله يختلف عن ذلك الرجل الناعم المهندم الذي رأته لأول مرة وكان من الجلي أن له شخصيتين مختلفتين. الأولى تخصّ الرجل صاحب المرتب الكبير والثقافة العالية والتعليم الممتاز، والثانية تخص الجيولوجي الخبير في فرعه والذي يملي أوامره ويرأس العمل في الظروف القاسية والصعبة، ويعيش حياة قاسية ثم يقضي وقته في ملذاته كلما وجدها.

نظر اليها وقال:

«واذا كنت قد أمضيت طول الليل في الخارج فهل كان يقلقك ذلك؟»

فاندهشت لهذا السؤال وردّت عليه تقول:

«يقلقني؟ وما السبب؟»

«ألا يزعجك هذا التصرف المعيب من ابن صديقك؟»

«يزعجني؟ لا ولا حتى يدهشني أن مثل هذا التصرف هو ما انتظره منك».

«وما هو الأساس الذي بنيت عليه هذا الحكم؟»

فهزت كتفيها وقالت:

«بنيته على ما قلته لي عن نفسك. وعلى ما أعرفه عنك».

فقال ساخراً:

«انك تعرفينني جيداً وكأنك تعرفينني من زمن طويل».

وضايقها هذا التهكم ولكنها لم تأبه له. ثم قالت:

«زمن طويل يجعلني أبني حكماً عليك. وان أحدس ببعض حكمك على النساء».

ثم خلع سترته والقاها جانباً. واتكأ على المكتب واضعاً يديه في جيوب بنطلونه ووضع ساقاً فوق الأخرى. وقال:

«وخيّل اليك على سبيل المثال اني انظر اليهن كأهمية ثانوية في حياتي وكلّي، مللّ عندما يحتاج اليهن - كما يحتاج اليهن الرجال عادة - وكلّي، مثير عندما أنظر اليهن».

وبدا في عينيه بريق يسخر منها ثم أكمل كلامه يقول:

«واني استخدمهن وأحياناً لا أحسن استخدامهن وعندما يعترضن على معاملتي القاسية لهن، القيهن جانباً وأبحث عن غيرهن ليحللن مكان الأخرى التي ذهبت».

وسببت لها كلماته الاشمئزاز وفي الوقت نفسه أثارتها فشعرت بتحرك عواطفها ورغباتها. وخيّل اليها أن هذا الرجل أصبح كابرة الدواء، يدخل تحت جلدها ويسري في جسمها ويسبح مع دمها في الشرايين. فأغمضت عينيها لبرهة حتى تتفادى النظر الى جاذبيته. ثم سمعته يضحك فغضبت ثم استدارت لتطل من النافذة.

ثم قالت وصوتها يبدو غريباً.

«كان ما أريد عمله هو أن أطلّ من النافذة لأتمتع بالمنظر وهذا سبب قدومي الى هنا».

ثم أطفأ رايان النور وجاء ليقف بجانبها عند النافذة فتأكدت انه تعمّد أن تلمس ذراعه ذراعها وحتى لما ابتعدت عنه قليلاً حرص أن يقترب حتى يتلامسا أكثر فعضت على شفتيها وشعرت انها تود البكاء، وقالت في نفسها: كفّ عن ذلك، كفّ عن تعذيبي فاني لست من ذلك الصنف من النساء. ألا تلاحظ ذلك...

ثم سمعته يهمس ويقول:

«انظري! المنظر اختفى فانسدل الستار عليه وأخفاه ولم يبق شيء، كما أن الافق قد راح».

وأكمل يقول بصوت منخفض:

«شعوري بالحرية ذهب كذلك».

وسكت ثم شعرت وهو يقترب منها أكثر ويقول:

«لا تهتمي بذلك. فعندما يأتي الصباح سوف تعود حريتي معه».

ونظر اليها ورفعت عينيها اليه فهالها أن تجد وجهه قريباً منها. ثم أردف يقول:

«كالذي يخضع لمفاتن المرأة أثناء الليل ثم يتركها ويمضي في الصباح».

ثم قالت بمرارة وهي تبحث في الظلام عن الباب فلم يتبعها:

«تعود الى حريتك».

فقال يرد بسخرية:

«الى حريتي».

٤ـ لعنة البومة

نزلت ماريتا للافطار في اليوم التالي فوجدت مكان هارفورد خالياً وأدواته مستعملة. فأسرعت في تناول طعام الافطار حتى تتلافى رؤية رايان، ولكنه دخل قبل أن تنتهي من الطعام، نظر اليها وابتسم بسخرية عند رؤية بنطلونها الضيق المصنوع من القماش السميك، والبلوزة ذات العنق المفتوح. ثم جلس على مقعده ولم يلتفت اليها وكأنه أبعدها كلية عن فكره.

وكان يرتدي ملابس عادية هذه المرة أيضاً ودخلت السيدة فيسك بخطوات سريعة قوية. وأمسكت بقطعة من القماش لتحمي يدها من الحرارة وأمسكت بصحن فيه لحم وبيض وضعته أمام رايان، فابتسم لها ابتسامة عذبة.

ولما غادرت السيدة فيسك الحجرة حوّل ابتسامته الى ماريتا، لكن العذوبة تحولت الى سخرية، وظلّ يلزم الصمت. فهل كان يمتحنها ليعرف مدى تحملها لصمته؟ ثم تناول الجريدة عن مقعد والده وطواها وراح يقرأ جزءاً من الصفحة الاولى. ثم غاب في القراءة عن العالم. وصممت كي تتحمل ابتسامة الانتصار التي لاشك سوف يصوّبها اليها. وتصدت الباب ورأسها مرفوع ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها وبقيت في البهو. فالبهو بمساحته الكبيرة له تأثير دائم عليها بسقفه العالي وجدرانه المنقوشة. ورأس الوعل المحنط المعلق فوق باب مدخل المنزل وشعار العائلة المحفور في السقف، وكانت كلماته باللغة اللاتينية

فتساءلت بفضول عن معناها ثم خرج هارفورد من مكتبه ووقف بجانبها ووضع يده على كتفها، وفي تلك اللحظة فتح الباب وخرج رايان من غرفة الطعام ولكن يد هارفورد بقيت كما هي، فمشى رايان الى المنضدة الطويلة المصنوعة من خشب البلوط والتقط إحدى المجلات ثم التفتت ماريتا نحوه خلسة، ورأت على غلاف المجلة صور طير فارداً جناحيه، وكانت إحدى مجلات هارفورد التي تعالج مراقبة الطيور فتعجبت لقراءة رايان لها.

ثم قال البروفيسور تيودور:

«سأذهب هذا المساء الى مخزن كبير يقع تجاه الحديقة الكبيرة على الجهة الأخرى من أرضنا وتسكنه بومة من النوع الذي يسكن المخازن الكبيرة، وأتمنى من زمن طويل أن أصورها. فهل لك أن تأتي معي، إذ ربما وجدناها فتشاهدينها؟»

فسألته ماريتا:

«صورة في الظلام؟»

وهنا سمعت رايان يرد بدلاً من والده ويقول:

«صورة الكترونية بالكشاف القوي.»

فقالت ماريتا وهي تتجاهل الابن:

«نعم أود أن آتي معك.»

فضغط بيده التي كانت ماتزال على كتفها لسعادته وقال:

«حسناً.»

ثم أخذت يده تربت عليها وقال:

«سنذهب بعد العشاء معاً.»

تعلقت نظراتها بنظرته فرأت فيها بريقاً غريباً، وكانت تشعر شعوراً خفياً بأنه ينظر اليها ولا يراها، وخيل اليها أن نظره يخترقها وكأنها شبح.

ولكنها عندما ابتسمت له كانت ابتسامته دافئة وبها شيء من الحماسة ثم قال:

«سيطيب لي وجود من يؤنسني، فقد مللت الوحدة.»

وشعرت ماريتا أن نظر رايان يقع عليها. ثم رجع هارفورد الى مكتبه ثانية، وأغلق الباب، ونفضت ماريتا الشعور بالذنب الذي حط عليها

كالطير ثم قصدت السلم مارة برايان في طريقها، لكنه ألقى بالمجلة جانباً ومد يده وأمسك بها، فأرادت أن تتخلص منه غير ان الأصابع التي كانت تمسك بها بخفة غاصت في ذراعها بقسوة، اذ كانت يد إنسان غاضب. فقالت له وهي تتألم وتحاول أن تداري الألم:

«ماذا تريد؟»

«اتفقت مع والدي على موعد؟»

فالتهبت وجنتاها وقالت:

«لا تكن سخيفاً..لا شيء سوى اتفاق كي أذهب معه عندما يصوّر البومة.»

«أتذهبين الى المخزن في جنح الظلام؟»

«عقلك لا يرتقي أكثر من عقل خادم حقير..لا تظلم أحداً وخصوصاً والدك ولا تقس تصرفه بتصرفاتك الدنيئة.»

«أشكرك على رأيك في مبادىء أخلاقي، وبالرغم من تقدير والدي فانه إنسان، وهو رجل لم يتعدّ الخمسين من عمره الا قليلاً وبذلك لا يعتبر، في هذه الأيام، كبير السن، كما أنه بصحة جيدة ونشط ويمكنه إقامة علاقات مع امرأة إذا اراد ذلك.»

التهبت وجنتاها وارتفعت يدها في محاولة يائسة لتضرب رسغ اليد التي مازالت تقبض على يدها ولكن كان ذلك بدون فائدة، وبقيت أصابعه تغوص في يدها بشدة.

وقفزت الدموع الى عينيها ثم قالت:

«أرجوك دعني أذهب فانك تؤلمني.»

ولكن كانت وهي تخاطبه كأنها تخاطب حجراً أصم، ولم تؤثر فيه توسلاتها ثم قال لها:

«بما أنك اتفقت مع والدي على موعد هذه الليلة، فاني أقدم لك دعوة لبعد ظهر هذا اليوم.»

فردت تقول:

«لا، شكراً، انني...»

«انا ذاهب الى نورويتش ومعي تلك الكاميرا التي تسببت في كسرها للعثور

على قطع الغيار اللازمة فهل تأتين معي؟»

«الكاميرا التي تسببت في كسرها» أراد أن يذكرها بمهارة في تلك اللحظة التي لم تنتبه فيها وأتلفت قطعة هامة من أحد الأجهزة عندما اقتحمت مكتبه بدون دعوة.

وكانت وخزة الذنب التي شعرت بها الى جانب الألم من ضغط أصابعه التي لا ترحم، كلها مجتمعة تملي عليها الموافقة. ثم خفف من الضغط لكنها تأثرت كثيراً من بريق الانتصار الذي بدا في عينيه، وكانت تفضل أن تشعر بالألم وحده. ثم صعدت السلم هاربة منه.

وبعد أن مشطت شعرها ولونت وجهها بماكياج خفيف وغسلت يديها، سمعت التليفون يرن في مكان ما بالمنزل.

وبما أن الوقت كان قرب الغداء، فكرت ماريتا أن تنزل الى الدور الأول، وفتحت باب غرفتها وسارت الى رأس السلم..لا بدّ أن المكالمة التليفونية كانت تخص رايان لأنه كان يتكلم ويضحك في البهو.

بقيت ماريتا مترددة في النزول وسمعته يقول: «لا يمكن أن أعدك يا دوربن فسأكون مشغولاً. تقولين امرأة أخرى؟ يا حلوة، آن الأوان أن تعلمي شيئاً عن حقائق حياتي، فلدي امرأة تحت أمري في كل ركن من أركان العالم. اذا أردت أن التقي بامرأة فما عليّ سوى أن أرفع سماعة التليفون.. تقولين إن هذا ادعاء؟ لا بل هو الحقيقة المجردة».

بدت من ماريتا حركة لا شعورية سمعها رايان فرفع رأسه الى أعلى ورآها وقد بدت في عينيه نظرة متوترة. فاستدارت ورجعت الى غرفتها.

جلست على السرير وانتظرت ثم قامت تتجوّل في الغرفة ولكن لما سمعت ناقوس الطعام لم تتأخر عن النزول.

وكان رايان مازال ممسكاً بسماعةً التلفون، فنزلت درجات السلم ورأسها مرفوع وعيناها تتفاديان النظر الى رايان وهو مسترخ على المقعد ويبتسم لشيء قالته له المرأة على الجهة الأخرى من الخط.

وسمع البروفيسور، لأول مرة، بنية رايان في الخروج مع ماريتا قبيل

انتهاء العشاء. فلم يسرّ لذلك وتعجبت ماريتا لتساؤلاته المنطوية على العراك الحقيقي والموجه الى ابنه:

«لماذا تدعوها معك؟»

«ولم لا؟»

واحتار البروفيسور وحاول أن يجد جواباً مقنعاً يرد به على ابنه فأخذت عيناه تدوران في الغرفة وكأنه ينتظر من الأثاث أن يمده بالرد وقال:

«انا سأكون في المخبأ، وماريتا يسرها ويسعدها أن تقرأ الكتب التي أعرتها إياها عن مراقبة الطيور، فإذا كان اهتمامها في هذا المجال سيبقى عميقاً - كما أتمنى - أمامها الكثير من العمل الذي لا بدّ أن تنجزه».

قال رايان بعدم اهتمام وهو يقوم من مقعده:

«هي وافقت على ذلك - تعالي يا ماريتا».

نظرت ماريتا الى البروفيسور على الفور فرأته في سبيل أن يقول شيئاً، وغالباً ما كان ينوي الاعتراض، وسألته قائلة:

«هل لديك مانع يا هارلورد إذاكنت؟»

فقام هارلورد وقال:

«اذهبي معه يا ماريتا لتري نورويتش فلا يوجد في القرية سوى محلات معدودة لا تتناسب مع ذوق أحد».

نظرت الى ملابسها ثم الى رايان وقالت:

«لا بدّ أن أذهب للاستعداد».

أوقف رايان سيارته في المدينة، واكتشفا أنه يوم السوق وسألها قائلاً:

«ماذا تفضلين؟ هل تودين زيارة معالم البلد أم تتسوقين في المحلات؟ فهناك الكاتدرائية...»

وأخذ يعد على أصابعه...

«ويرجع تاريخها الى أيام النورمانديين في القرن الخامس عشر، ولها برج يعد ثاني أبراج انكلترا علواً..ثم تجدين مدرسة القرية من القرن الرابع عشر حيث كان اللورد نيلسون طالباً، وبجانب السوق تقوم دار الحكومة ويرجع تاريخها الى

القرن الخامس عشر. ثم يجب ذكر قلعة «توروبتش» التي بناها النورمانديين والتي أصبح جزء منها متحفاً الآن. ثم دار الغرباء، وقد سميت بذلك تكريماً للوافدين الفلامينغ الذين أتوا ليستوطنوا المنطقة في القرن السادس عشر.»

وأضاف:

«أيهما تختارين، اذ سوف تكونين وحدك فالمحل الذي سآخذ الكاميرا اليه يقع في شارع جانبي، ولن أقدر الوقت الذي سوف أمضيه هناك.»

قالت:

«أظن أنني سأستغني عن زيارة معالم المدينة هذه المرة. فلن تروق لي وأنا بمفردي.»

«إذن تفضلين الذهاب الى السوق؟»

فهزت رأسها موافقة ثم قال لها وهو يقبض على ذراعها:

«سأوصلك اليه وامكثي هناك الى أن ارجع اليك. فأتجوّل في السوق الى أن أجدك.»

وعندما وصلا الى السوق قالت له:

«في السوق الكثير من الناس فكيف ستجدني؟»

«أعرف كيف أجد الفتاة التي تمتلك شعراً لونه بلون شعري، وباقي خصائصها لا تنسى بسهولة.»

وابتسم لها ثم ذهب واختفى بين الناس بعد أن قال لها:

«تمتعي بوقتك.»

وقبل أن تتخذ «مارينا» طريقها بين الناس الذين كانوا يساومون أمام البضائع، تصدت الشوارع الضيقة المرصوفة بقطع الحجارة الصغيرة،وتجولت فيها فمرت بالمنازل الفخمة ونظرت الى الممرات الضيقة التي تصب في الطريق الرئيسي ورأت الأثاث القديم ومعارض الفنون. ومرت بأماكن الحفريات التي ظنت أنها تحتوي على آثار من تاريخ المدينة القديمة.

وكان الناس يثرثرون والموسيقى تعزف، وكانت أقسام الفاكهة تعبق الجو برائحة الفاكهة الخاصة بها، بعضها ذكي وبعضها غريب. أما الزهور فملأت

المكان بألوانها الزاهية التي تجذب النظر.

ثم سمعت «مارينا» صوتاً بجانبها يقول:

«من الغريب أن نشترك، على الأقل، في شيء واحد وهولون شعر كل منا.»

فشعرت بالتوتر وحبست أنفاسها. فقد عاد «رايان» وكانت يداه خاليتين، وأمكنه أن يقرأ أفكارها فقال:

«التاجر الذي قصدته نفدت من محله تلك القطعة الهامة التي طلبتها.»

«اذن سوف تبقى الى أن تحضر الكاميرا. انني آسفة لأنني سببت لك كل هذه المتاعب.»

فقال يتهكم ولو أن «مارينا» استشفت وراءه نوعاً من القسوة:

«أتمنى أن يجثم وزرك بشدة على كتفيك الرشيقتين، فهذا التأخير يسبب لي الكثير من المتاعب.»

ومشى بجانبها يلفت نظرها الى ما تحويه أقسام السوق من بضائع، وقال لها إنهما يشتركان في هواية واحدة وهي زحام السوق. واستطرد:

«ويمكننا أن نبني علاقة على هذه الحقيقة.»

فردت ببرود على كلامه قائلة:

«لا أرى أي داع لنحاول أن نبني أي نوع من العلاقات. فانني هنا ضيفة صديقة لوالدك. وعندما أرجع الى بيتي بعد انقضاء الزيارة لن أرى أي سبب كي نتقابل ثانية.»

وفجأة وبدون إنذار استدار لمواجهتها وسد الطريق أمامها وترك الناس يلفون حولها، ونظر اليها وقد ضاقت عيناه ثم قال:

«انك لن تستطيعي ذلك.»

فأجتاحها الغضب الجامح فجأة وقالت:

«هل لك أن تتركني وحدي؟»

وكانت جماعات الناس التي تمر بجانبها تبتسم وتقول لنفسها «هذا عراك المحبين». رجع «رايان» الى مكانه بجانبها واستمرا في السير.

«لا، إنني لا أريد أن أتركك وحدك.»

قالت والكلمات تخرج من بين أسنانها:
«انك تسبب لي الاشمئزاز».
ولكنها ندمت على حماقتها، فهو ابن مضيفها وليس لها الحق في مخاطبته بهذه الطريقة، وهو يكاد يكون غريباً عنها، اذ لم تعرفه الا منذ وقت قصير. وكان تقطيبه وعبوسه قد أجبرها على الاعتذار له فتقبل الاعتذار بهز كتفيه بلا مبالاة.
ثم نظرت اليه فرأت شعره البني وخصلة منه تنزل الى أن تصل الى أحد حاجبيه، وأنفه الارستقراطي وفمه الواسع وشفتيه المكتنزتين، لكنها غضت من بصرها عندما قابلت نظرته الساخرة الغريبة.
وطافت برأسها فكرة تقلقها وتقول لها:«انك لا تشعرين بالاشمئزاز منه لأنه يتمتع بصفات لا تنفر فهناك ذكاؤه اللماح، ونظرة عينيه تدل على الاستقلال والاعتداد على النفس...
ولكي تخفي عن نفسها اضطراب أفكارها أطالت ماريتا الوقوف بجانب أحد المحلات بالسوق، وراحت تلمس الملابس المعروضة وتفحص شالاً من الصوف ابيض مشغولا باليد بغرزات معقدة جميلة الصنع، خفيفا، رقيقاً كنسيج العنكبوت، وتخيلت نفسها تضعه على كتفيها عندما يبرد الجو في المساء. وعندما سألت البائعة عن ثمنه وعرفت ارتفاع سعره اعادته الى مكانه وهي تتنهد بحسرة.
واستمرت ماريتا في تجوالها، وكانت تسبق رايان بمسافة طويلة ولكن هذا لم يضايقه وتساءلت لماذا هي دائمة الخلاف مع ذلك الرجل؟ ألا يمكنها الوفاق معه في أي شيء؟
ولم تجد رايان بجانبها، فهل أغضبته حتى أنه تركها ورجع الى منزله. لكنها شعرت بيد على كتفها جعلتها تقف ساكنة.
ثم قال لها:
«ان فنجاناً من القهوة قد يصلح مزاجك...»
فقالت:
«لا أريد القهوة، وشكراً لك».
وكانا يقفان بجانب قسم المرطبات. وكان البخار يخرج من المياه الساخنة.

فأمسك رايان برسغها وجذبها نحو المحل، وقال للساقية:
«نريد قهوة لاثنين واثنين من هذه الاشياء المحشوة بالكريمة».
فقالت المرأة البدينة وهي تبتسم له وتدل لهجتها على أنها من هذه المنطقة:
«إكلير بالشوكولاته. انها لذيذة».
وكانت ماريتا تنوي رفض الحلوى ولكن اذا قالت «لا وشكراً لك» غضبت صاحبة المحل اللطيفة التي تعتز كثيراً بما أنتجته يداها.
وقالت ماريتا وهي تنظر في كيس النقود لتخرج العملة الصغيرة:
«سأدفع ثمن طلبي».
فرد يقول:
«تأخرت لأني دفعت الثمن».
ثم رفع فنجانه عالياً وتمتم يقول:
«في نخب علاقتنا المستقبلة».
ثم رشف القهوة ونظر اليها بتمعن وأردف يقول:
«مهما كان شكلها».
ولكن ماريتا ردت تقول:
«ليست لدي النية كي أقيم أي علاقات معك في المستقبل».
فضحك رايان وهو يعطيها قطعة الحلوى الثانية، التي قبلتها بعد تمنع ولكنها لم تحسن أكلها، فقد وجدت الكريمة طريقها الى جانبي فمها وذقنها وقال لها رايان ساخراً:
«لست معتادة على الخشونة».
«وهل انت معتاد على ذلك؟»
«بكل تأكيد. قلت لك ان العالم بأسره هو مسكني فعشت معتاداً على الخشونة».
وحاولت ماريتا أن تجد منديلها لتنظف بقايا الحلوى ولكنها لم تجده فقال لها:
«هناك كريمة على ذقنك».
وقبل أن تكتشف ما يرمي اليه وتعرف نيته، كانت يده تمسك رأسها من

الخلف وقد بدأ ينظف وجهها.

وسمعت صوتاً يقول:

«رايان يا حبيبي!»

فكفت اليد التي كانت تمسك بالمنديل عن الحركة. ثم استمرت في عملية تنظيف وجه ماريتا. ولكن ماريتا استدارت لترى الفتاة القادمة.

وضع رايان المنديل في جيبه وأبقى يده فيه. ولم يبد أي ترحيب بكلام الفتاة القادمة.

قالت الفتاة وهي تنظر بفضول الى ماريتا:

«لقد خمنت أن أجدك هنا، يا حبيبي، من هي صديقتك يا رايان؟»

فرد عليها يقول بالتضاب:

«قلت لك على التليفون انني سأكون مشغولاً.»

«قدمني لصديقتك يا حبيبي.»

فهز رايان رأسه بدون مبالاة:

«يا ماريتا أقدم لك دورين فوستر وهي صديقة لي. يا دورين هذه هي ماريتا نيوبل.»

ثم نظر الى ماريتا بطرف عينيه وقال:

«وهي صديقة وزميلة - زميلة صغيرة جداً - لوالدي.»

تعجبت ماريتا من وصفه لها. هل كان في نيته أن يستهين بها أمام حبيبته؟

ولمحت ذلك في نظرته لها فعرفت أن ظنها هو الحقيقة. اذن فسوف تريحه من وجودها المحرج. فيمكن أن يبقى مع صديقته وحدهما وهنا قالت:

«لو كنت أعرف أنك رتبت لقاء مع الآنسة فوستر اليوم لكنت أحجمت عن الحضور معك.»

ثم نظرت الى ساعتها وقالت:

«أرجو أن تأذن لي يا دكتور تيودور بالانصراف فسأجد محطة الأوتوبيس وأرجع الى والدك.»

فعبست دورين. ثم ابتسمت وقالت:

«دكتور تيودور - رايان؟ لماذا تتكلم بطريقة رسمية؟ انا كانت صديقة للعائلة.»

رد رايان يقول:

«صديقة لوالدي. ولسبب ما تعتبر الآنسة نيوبل نفسها أعلى درجة واحدة فقط في السلم العلمي من المرأة التي تقدم الشاي في المعمل، الذي هو في الوقت نفسه مكان عمل والدي وهي تعتبر نفسها في مستوى ذكاء منخفض فلا تنظر لنفسها وكأنها في مستواه.»

هبت ماريتا واقفة. فكفاها ما قاله رايان. ولكنه أمسك يدها وقال:

«سترجعين معي.»

ولكن ماريتا خلصت يدها بقوة بدون أن تأبه بالألم الخارق الذي سببته أصابع رايان على جلدها، وجرت نحو الجمع وتاهت بين قلوبهم الضاحكة.

سمعت ماريتا رايان وهو يلقي عليها سؤاله بينما كانت تنظر الى صورة معلقة في غرفة الطعام:

«لماذا لم تنتظريني.»

وكان هارفورد لم يظهر بعد.

فردت تقول:

«وجودي لم يكن مرغوباً فيه. فعلت الشيء اللائق الوحيد. تركتك حتى تنعم بصحبة الآنسة فورستر بدون الاحراج لوجود شخص ثالث. لو أخبرتني أنك ستلاقي صديقتك...»

«ولكني لم أرتب اللقاء بصديقتي.»

«سمعتك تكلمها بالتليفون.»

«لا بد أنك سمعتني أقول لها سأكون مشغولاً وكنت أقصد أن أقول لها إنني لن أتمكن من رؤيتها. ومن الجلي أنها ظنت بي الظنون فصممت أن تتبعني، وها هي قد نجحت في ذلك. ولكن كيف رجعت الى هنا؟»

«رجعت في الأوتوبيس.»

وأخرج رزمة من جيبه وأردف يقول:

«لو لم تهربي كنت سأعطيك هذه الرزمة في رحلة عودتنا.»

ولكنها ترددت في أخذها فقال لها:

«هيا خذيها. فاذا كان أبي يعطيك هدايا فلم لا أعطيك أنا أيضاً؟ وعلى كل حال هذه هي طبيعة العائلة.»

ولكنها وقفت ويداها مسبلتان وقالت:

«ولكن المنظار لم يكن هدية فهو يعيرني حين أذهب لمراقبة الطيور مع والدك!»

«انه هدية لا أكثر ولا اقل.»

فتحت الرزمة ورأت الهدية فوجدتها الشال الصوف الذي أطالت اليه النظر في السوق. إذن هذا ما كان يفعله عندما اختفى لفترة وغاب من جانبها. كان يشتريه لها! وسألت نفسها لماذا ؟

ثم قال:

«لا تتجرأي وتحاولي أن ترجعيه لي ثانية. فإذا فعلت فسأستعمله لخنقك.»

ثم اقترب منها ورفع يديه الى عنقها

فتراجعت ماريتا الى الوراء.. لا خوفاً من تهديده ولكن خوفاً من لمساته. ثم هزت رأسها وقالت:

«انه جميل ولطيف منك أن تهديه لي واني اقدر ذلك جداً. ثم فتح الباب ودخل هارفورد ورأت عيناه الصورة بأكملها وكان من الجلي أن هذه الصورة لم تعجبه.

تقدم رايان الى ضيفتها، وأخذ الشال منها وفرده ثم وضعه على كتفيها. وكان ثوبها عاري الكتفين فشعرت بالشال الدانتيل يلامس جلدها. فرفعت عينيها الى رايان لتجد فيهما السخرية.

وبعد أن وضع رايان الشال على كتفي ماريتا بالطريقة التي أرضته أبقى يديه على ذراعيها وأخذ يدلكها بإبهامه في رقة، فلم تتحرك من مكانها. قصد هارفورد المائدة وشعرت ماريتا أن السحر الذي شملها به رايان زال فتحوّل نظرها الى هارفورد في شيء من الشعور بالذنب ولكن لماذا؟ إنها لم ترتكب ذنباً؛ فكل ما فعلته أنها قبلت هدية ابنه.

وبدا هارفورد شاحباً وشفتاه اللتان ظهرتا فوق لحيته مزمومتان. ودفعتها

الشفقة كي تذهب اليه وتفسرّ له كل شيء.

وعندما فرغوا من العشاء قال هارفورد لماريتا وهو ينظر الى صندلها:

«يجب ان تغيري ملابسك وأن تنتعلي حذاء سميكاً للمشي. وترتدي ملابس تناسب ظروف المخزن.»

وأضاف ابنه قائلاً وهو يبتسم:

«وتضعي على رأسك شالاً حتى تبعدي الخفافيش عن الوصول الى شعرك.»

ثم ضحك عالياً عندما رأى نظرة الخوف التي بدت على وجهها.

فرد عليه والده بشدة:

«كف عن إخافتها يا رايان، فأنت تعرف جيداً أن هذا ليس صحيحاً.»

فهز ريان كتفيه وتركها.

بدلت ماريتا ملابسها، وارتدت سترة زرقاء سميكة وبنطلوناً من القماش الجينز وسترة بيضاء برقبة عالية. وسارت مع هارفورد مخترقة الحقول بخطوات حذرة لعدم استقامة الأرض وطراوتها قبل بذر الحبوب.

وفجأة قال البروفيسور:

«أنصتي الى هذا الصوت الخشن.»

فسمعت ماريتا أصوات الطيور وخفقان أجنحتها حولها، ثم خفت هذه الاصوات عندما ذهبت الطيور في طريقها نحو المنزل.

وأخبرها هارفورد بأسمائها. وقال:

«انها كانت تعرف باسم طيور الشيطان والسبب هو ذلك الصوت والضجيج الذي تحدثه في ليالي الصيف.»

وبدا المخزن قديماً بنيت جدرانه من الصخر والطوب، والمدخل لا باب له، والنوافذ عبارة عن فتحات مستطيلة ، وسقفه منحدر مصنوع من القرميد.

ورفع البروفيسور عينيه عند سماعه زقزقة الطيور فوق رأسه وأشار بيده الى الطير وهو يسميه لها. وقال وهو يبتسم لماريتا:

«انه يبني عشه من الطين تحت زوايا إفريز المنازل والمخازن.»

ثم أردف يقول:

«وهذه الطيور تعاني من الكثرة كلما تقدم بها الموسم. فمرة أمكنني أن أعد ثلاثة منها متكدسة في عش واحد. وهذا الميل الى التكدس تشترك فيه الطيور مع عادات الانسان.»

ونظرت ماريتا الى المخزن فوجدت أنه يتطلب منها الشجاعة كي تدخل هذا المكان المعتم المجهول لديها. ولما اقتربا من المدخل قبض هارفورد على ذراعها، وأجبرها على الوقوف.

وكانت الشمس في طريقها الى الغروب عندما رأت فوق رأسيهما شيئا مثل الشبح الأبيض، يرفرف بجناحيه ويبحث عن الطعام. وكان لون الريش في ظهره منقطا بنقط ذهبية، أما ريش وجهه وبطنه فكان أبيض ناصعاً. ولم يحوم. بل بقي في الجو ثم انقض على فريسته. ولم تتعرف ماريتا على نوع فريسته السيئة الحظ لأن الظلام كان قد ساد المنطقة. ثم ارتفع الطير في الجو ثانية حاملاً فريسته بين اظافره. فهمس هارفورد:

«هذه هي بومة المخازن.»

ثم قال:

«تعالي.»

وقادها في الطريق الى المبنى وهو يقول:

«لا تخافي من شيء.»

ووضع يده لبرهة على ظهرها يربت عليه كي يطمئنها لتبعته هي مكرهة على ذلك. ترى هل تقابل خفافيش كما أكد لها رايان؟ ولكنها لم تجرؤ على الافصاح بمخاوفها الى هارفورد اذ سوف يطرد هذه المخاوف عن خاطرها برقة ولكن بحزم، ويعتبرها مخاوف أطفال. ثم انحنت ماريتا خوفا وهي تنظر الى الألواح الخشبية التي توجد بالسقف.

قال هارفورد وهو يبتسم لها:

«سوف تعود البومة لتوها، والى أن تعود، علينا أن ننتظر. اجلسي بجانبي يا ماريتا. ان الصبر مرغوب فيه في هذه الحالة. والمزيد من الصبر. واني ألاحظ أنك قلقة وذلك لصغر سنك. فهل تظنين أن لديك الصبر الكافي؟»

كانت ماريتا متأكدة أن ليس لديها الصبر الكافي ولكنها لم تجرؤ أن تخبره بذلك فأومأت بالموافقة. فسرّ لذلك وضغط على يدها شاكراً، ثم بعد ذلك وجه كل اهتمامه الى الكاميرا استعداداً للتصوير.

ولم يبق بعد ذلك شيء سوى الانتظار في سكوت تام، وكانت هذه هي تعليمات هارفورد. فقد قال لها ان أية حركة تتسبب في إخافة البومة فتطير هاربة.

وسمعا صوت رفرفة أجنحة في المدخل ثم حجب ضوء القمر لبرهة، ودخلت البومة بدون صوت بجناحيها العريضين وحطت على أعمدة السقف الخشبية. وكانت البومة ظاهرة، في ضوء القمر، بلون صدرها الأبيض. وبرقت عيناها فحبست ماريتا أنفاسها.

كان هارفورد بلا شك متمرساً في فن تصوير الطيور. وكان هذا واضحاً من طريقة تصويره بسرعة وسكون. ولم تصدر الكاميرا، وهي تصوّر، الا أقل صوت ممكن وفوجئت البومة فلم تتحرك ولكن أقلقها صوت آخر غير صوت الكاميرا يبدو أنه كان آتيا من جهة الباب.

فهبت البومة طائرة وهي تطلق صوتاً طويلاً يشبه العويل، وأخذت تدور حول المخزن بجناحين مبسوطين وهي تهبط وتعلو وتحوم لبرهة فوق رأسيهما.

شعرت ماريتا بتوتر لا يحتمل في اعصابها جعلها تطلق صيحة تميل نحو هارفورد ظناً منها أن البومة سوف تنقض عليها وتعتبرها فريسة لها. فأحاطها هارفورد بذراعيه وهو يحنو عليها بينما فرت البومة من المدخل واختفت أخيراً في ظلام الليل.

قالت ماريتا:

«اني آسفة، اني ...»

*

ولم تتمكن من اكمال كلامها لأنها شعرت بالخوف ثانية وهو خوف أعظم من الخوف الذي سببه لها صوت البومة في هربها. ماذا يقول لها هارفورد؟ ولماذا يهمس؟ وقد ترك تحفظه جانباً وأخذ يتحسس وجنتها ويلمس شعرها ويداه تشدانها اليه.

فقاومته ماريتا ولم تفهم قصده وسمعته يقول:

«يا عزيزتي... يا فتاتي العزيزة».

وشعرت به يتحسس وجهها في الظلام كرجل كفيف ويقول:

«دعيني أقبلك... فقد انتظرت طويلا طويلا... وبدا الوقت لا نهاية له فقد ظننت أنك لن تأتي ...».

ثم اكتشفت أصابعه في فمها فقال:

«دعيني أقبل شفتيك... انهما... انهما...».

ولم تسمع باقي كلامه، فقد عانقها.

ولم تقو أن تفعل شيئاً. ثم شعرت في قرارة نفسها بالعطف على هذا الرجل الذي بدأت الآن تكتشف مدى حنانه واحتياجاته العاطفية.

وبدأ هارفورد يرتجف، وارتجف صوته كذلك قليلاً وهو يقول لها:

«إنني أحترم عفتك وأقدسها».

وكان كلامه غير مفهوم، وبدا متغيراً ولكنه قال:

«إن إخلاصي يعادل عفتك».

فبدأت ماريتا ترتجف خوفاً عليه وخوفاً عليها، لما قد يحدث لها معه. ولا بد أن خوف ماريتا ظهر له بوضوح إذ وخزه ضميره وأرجعه الى الواقع من الدنيا التي كان هائما فيها، فرن صوته طبيعياً عندما قال:

«لا داعي للخوف مني، فلن أحاول أن أجردك من عفتك، ولن أفعل شيئاً يضرك. كيف أفعل ذلك، وأنا...».

ثم مسح وجهه بيده وهو مضطرب وحائر.

وشعرت بسرور لأنها لم تصده، فقد كان قلبها يجيش بالحنان والشفقة عليه. وفجأة سطع نور بطارية فبدد الظلام ووقع نوره بقسوة على الشخصين المتعانقين.

تعلق نظرها بالنور ثم رفت وسقط مثل الفراشة المجهدة أمام الضوء الخارق. لا بد أن القادم هو الذي سبب الصوت الذي دفع البومة الى الهروب! ولا بد أن القادم كذلك شاهد كل ما حدث من قبلات وهمسات وتجاوب!!

ثم سمعا صوت تنفسه الغاضب العميق ورأيا طوله واتساع كتفيه معكوسين

في فتحة الباب فعرفا من يكون القادم.

همس هارفورد يقول وهو يمسح عينيه:

«ولدي... ولدي...».

ثم تسلط نور البطارية على ماريتا ومرّ على طولها كنظرة غاضبة تدينها، وأخيرا اختفى النور وساد الظلام ثانية، وحملته قدماه خارج المبنى.

٥ ـ ظهور في الحفل

وعند رجوعهما عبر الحقول أخذا يتعثران في ضوء القمر هارفورد يعتذر لمارينا قائلاً:

«مضت سنوات كثيرة منذ أن انقطعت عن صحبة النساء. وفي الحقيقة كان ذلك منذ أن توفيت زوجتي. ولم أخن ذكراها بل بقيت عاطرة في خاطري دائماً. والآن وقد قابلتك...»

ثم كفّ عن الكلام وأخذ بذراعها وبعد برهة أضاف:

«قولي لي يا مارينا: هل تمانعين إذا أظهرت لك عواطفي من وقت لآخر إذا.. عانقتك؟»

تسببت هذه المذلة في أن تنهمر دموعها لأنها صادرة من رجل مرموق ونبيل، وتذكرت مارينا ما قاله ابنه عنه من أنه ما زال يتمتع بحيوية زائدة. فإذا سمحت لهارفورد أن يعانقها ثانية وإذا قالت له إنها لا تمانع في ذلك فسوف تتغيرّ علاقتهما كلية، لا يمكن لرجل أن يستمرّ في عناق أية امرأة بدون أن يقوده ذلك إلى... إلى ماذا؟ الشعور بالتكامل أو الحب؟ لا... فهي لا تحب هارفورد ولكنها تكن له الاعجاب والشفقة العميقة. فإذا قالت له لا... لا بدّ أن يسبب ذلك له ألماً بجانب المهانة.

همست تقول:

«لا أمانع في ذلك».

سمعته يتنهد بارتياح مما يدل على التخلص من الحيرة وانتعاش الأمل في

نفسه.

ومرّ اليوم التالي، وشعرت بخوف من احتمال مقابلة رايان، ولكن مارينا لم تره ثانية إلى أن حان وقت العشاء في تلك الليلة.

ابتسم رايان وكأنه يجد في تفحصه لمارينا شيئاً مضحكاً، ولكن وراء ابتسامته برود كالثلج.

فهو لم ينس المنظر الذي رآه في المخزن عندما شاهد والده يأخذها بين ذراعيه. وإذا كان لم ينس فمارينا لم تغفر له تدخله في تلك اللحظات من الحنان والكلمات التي تنطوي على أعمق درجات الاخلاص من رجل في أشد الحاجة إليها.

وبعدما تفحصته أخذ بدوره ينظر إلى بلوزتها البنفسجية اللون، بدون أكمام والتنورة المنقوشة بالزهور البنفسجية. ونظر بجرأة إلى وجهها وعينيها الحائرتين وحاجبيها المقوسين وشفتيها...

ثم قالت له وهي غاضبة غضباً أدهشها:

«أعرف ما تفكرّ فيه. ولكنك مخطئ».

رفع حاجبيه وقال:

«عندما أنظر إلى امرأة جذابة لا أهتمّ بالتفكير فيها بل بالاحساس بها».

ثم قصد خزانة المشروبات وأخرج كأسين وملأهما بالمشروب. وكانت على وشك رفض المشروب عندما دخل هارفورد الغرفة وقال:

«هل تقدّم إلى ضيفتنا مشروباً يا رايان؟»

ثم أخذ الكأس من ابنه وقدمها إلى مارينا وبدا الأب سعيداً وهو يقول:

«انتظري».

ثم صبّ لنفسه كأساً وعاد ليقف بجوارها قائلاً:

«لنشرب نخباً، إليك وإليّ».

ورفع كأسه عالياً ثم التفت إلى رايان وقال له:

«انضم إلينا في النخب يا رايان».

وكانت كأس ابنه فارغة ولم يملأها ثانية وتركها على إحدى المناضد ثم وضع

رايان يديه في جيبيه ونظر إلى والده. وكان ذلك تحدياً منه لوالده الذي لم يهتم لهذا التحدي وأولاه ظهره.

وأثناء العشاء خيّل إليها أن الأب والابن اشتركا في اتفاق سري على أن يؤجلا خلافهما طوال هذه السهرة.

وبما أن هارفورد يسعده أن يحدث أي شخص عن حياة الطيور سرّه جداً مناقشة الموضوع مع ابنه. واستمرّ الحديث على المائدة إلى أن تناول الجميع القهوة. وفجأة تمنت أن يكون ذلك اللطف الذي أبداه رايان حقيقياً وأن يكون البرود الذي تخيلته من قبل كامناً وراء ابتسامته جزءاً من قلقها.

ولما غادروا المائدة جاء هارفورد إليها، وأخذ يدها في يده وضغط عليها وقال:

«يجب أن أذهب إلى مخبأي قبل أن يختفي ضوء النهار. وسوف أعود عندما تغرب الشمس. وأتمنى أن أجدك منتظرة عودتي. وأعدك ألا أطيل بقائي هناك لمدة طويلة».

واستمر رايان يبتسم حتى ذهاب والده. ولما نظرت إليه شعرت بقلبها يسرع في دقاته. وتساءلت إذا كان قد شغف بها؟ أو إذا كان ذلك الأسلوب الساحر الذي يبديه نحوها منذ وصولها إلى منزله انتهى إلى الأبد؟ تمنت ذلك من كل قلبها. وتمنت كذلك أن يقبلها هذا الرجل كصديقة.

قال لها رايان وهو واقف معها في البهو:

«سأذهب إلى غرفتي العلوية».

ولم تقو ماريتا على إخفاء عبوسها. فهل يتركها بمفردها؟ ولكنه عاد يقول وهو يرقب وجهها:

«هل تنضمين إليّ؟ يمكنك مراقبة الأفق بينما أقوم بعملي».

لم تخف دهشتها لهذه المفاجأة وسألته:

«ألا تمانع في وجود شخص آخر معك؟ وهل أفسد تركيزك على عملك؟»

طرفت عيناه ثم قال:

«لن تفسدي تركيزي على عملي، فوجودك كوجود أي امرأة أخرى معي...»

وبدا كأن اللطف الذي شعرت به ماريتا قد انقشع قليلاً ليكشف عن سخريته المعهودة. ولكن سرعان ما بدا لطيفاً، ثانية إذا ابتسم ابتسامة عريضة جعلت قلبها يخفق، وتأكدت أنها كانت تتخيل أنه يسخر منها.

وكانا واقفين أمام المدفأة حيث نقش بين الألواح الخشبية التي تكسو الحائط نموذج طبق الأصل لشعار الأسرة الموجود فوق المدخل الرئيسي للمنزل، ورسمت عليه أمواج البحر وطيور تحلق نحو الأفق ورأى رايان ماريتا تنظر إلى الشعار فسألها قائلاً:

«هل تفهمين اللاتينية؟»

هزت رأسها بالنفي فقال لها في شيء من الابهام.

«سأقوم بالترجمة، ففي هذه الأيام سيكون المعنى مناسباً، وهذه هي الترجمة: وراء الأفق تكمن الأحلام ووراء الأحلام توجد الحقيقة. وهذا معناه في لغة القرن العشرين، أنك قد تهربين من الحقيقة، كما يمكنك ذلك، ولكن في النهاية لا بدّ من مواجهتها مهما كانت مرارتها».

ثم أشار بيده إلى السلم وقال لها:

«اتبعيني».

وتركها في مكتبه برهة ولما عاد إليها وجدته قد غيّر ملابسه وارتدى بنطلوناً من الجينز الأزرق وقميصاً مفتوح الرقبة، وخلع عن كتفيه الجوّ الرسمي مع ملابسه، فعندما يكون بملابسه الكاملة تصبح شخصيته قوية طاغية ولكنها محصورة في مجال معروف. أما في ملابسه العادية فليس هناك حدود معروفة لانطلاقه إذ يحطم الحواجز التي تعوقه.

وتجولت ماريتا في غرفته وهي تعجب كيف سمح لها بدخولها والاقتراب من أجهزته ومعداته. فنظرت إلى الخرائط الجيولوجية المتعددة الألوان والتي تغطي جدران الغرفة. وبجانب الميكروسكوب وجدت العدسات اليدوية والزجاجات التي كتب عليها ماء النار، ومئات من عينات الصخور مرصوصة على الرفوف وألواح الزجاج الصغيرة للعينات التي تفحص بالميكروسكوب.

ثم تناولت قطعة من الصخور تعجبت لألوانها. وفجأة سمعت صوته يكلمها

ففزعت ولم تشعر به وهو يراقبها:
«هذه الصخرة من اسكتلندا».
ثم تقدّم ووقف بجانبها وقد شمّر كميه فلامست ذراعه العارية ذراعها.
فهل كان يفعل ذلك عن عمد؟ ولكنها تجاهلته.
ثم أشار إلى قطعة الصخر وقال وهو يشير إلى ألوانها:
«إن هذه الخطوط المتموجة من الأسود والأبيض والبني تكونت من الحرارة العالية والضغط، وهي عوامل أثرت على الصخور وذلك بضغطها حتى تبعثرت بعض المعادن التي تحتويها وحوّلتها إلى خطوط متوازية».
ثم ابتسم لها وبرقت عيناه وهو يسألها:
«هل أضايقك بذكر العلوم؟ إن هذه القطعة من الصخر بالذات هي أقدم قطعة صخر في المملكة المتحدة بأسرها».
ثم قصد مكتبه وأخذ يقلّب في رزمة من الورق وقال:
«وهذه تعتبر حقبة قصيرة من الزمن يتعامل الجيولوجي معها، وهذا الرجوع إلى الماضي السحيق لا يمكن للشخص العادي أن يفهمه».
ابتسمت له، وفكّرت أن تمازحه وهو في هذه الحالة من السرور فقالت له:
«ولماذا لم تضف تلك الكلمات الثلاث التي تثير غضبي مساعدة المعمل الصغيرة».
فرفع رأسه ليرى ابتسامتها المتحدية، ولكن تلك الابتسامة ماتت على شفتيها عندما لمست تغير مزاجه.
لكن الابتسامة التي ردّ بها على ابتسامتها كانت عريضة وبراقة خففت من مخاوفها، ويا للعجب، كانت عيناه تختلفان تماماً عن ابتسامته.
فهزت رأسها تعجباً وهي تهمس لنفسها بألا تتعلق بالأوهام ووقفت قرب النافذة تطلّ على الحدائق الواسعة المحيطة بالمنزل.
ورجعت ماريتا إلى الواقع عندما سمعت صوته يقول:
«ماريتا».
كان جالساً وراء مكتبه بهدوء، فراحت تتذكر ما قرأته في أحد كتب هارفورد، حيث طالعت ان بومة المخزن لا تحدث أي صوت عندما تنقض على فريستها.

وقال لها رايان بصوت هادئ، ولكنه ينطوي على لهجة آمرة لم تقو على تجاهلها:
«تعالي هنا يا ماريتا، ستشاهدين شيئاً جميلاً».
وقفت بجانبه ونظر إليها فرأى ابتسامتها الرقيقة. ثم قال:
«هل يمكنك استعمال الميكروسكوب؟ وهل تعلمت ذلك في مجال عملك؟».
فهزت له رأسها بالايجاب. ثم أردف يقول:
«هذا ما فسرته لك من قبل، ميكروسكوب جيولوجي. وهذا الجزء منه يسمى المسرح ويمكن لفه، سأدخل فيه عينة معدن من مجموعة تسمى كلوريتش».
وأخذت تراقبه فرأت أصابعه المدربة وهي تحركها بمهارة إلى أن وصلت إلى مكانها ثم أكمل يقول:
«والآن أضفت العدسة الضوئية، فانظري داخل الميكروسكوب».
ثم رجع خطوة إلى الوراء لتتمكن من النظر في داخله، وأطلقت صيحة دهشة وهي ترى التغيرات التي تطرأ على الألوان المختلفة. ثم قال لها:
«حركي اللوحة الزجاجية».
فلما فعلت كما أمرها، رأت الألوان تتغير وتتداخل. فالألوان الخضراء الجميلة تتدرج وتذوب في الألوان البنية التي تميل إلى الاحمرار.
ثم رفعت نظرها، وكان وجهها سعيداً مما رأت وقالت:
«هذه خرافة لا يصدقها عقل».
ثم حبست أنفاسها عندما رأت التعبير الذي انطبع على وجهه. وكان واقفاً قريباً جداً منها ويجعلها تضغط على منضدة التجارب فبدأ نبضها يسرع بالاثارة والخوف.
أما وجهه فقد خلا من كل التعبيرات الحانية التي كانت تكسوه طوال هذه الأمسية.
لم تجد به أي أثر للسماحة ولا الابتسام. وتغيّر تعبير فمه إلى مرارة واحتقار. إذن هذا ما كان كامناً وراء اعتدال مزاجه، ولم يكن مجرد أوهام.
ثم وضع يديه على كتفيها وأدارها إليه بشدة، فأطلقت صيحة ولكنه لم يأبه

لها ثم قال:

«ماذا تريدين؟ وما الذي تسعين إليه؟ هل هو مركز والدي؟ أم ماله؟ أم منزله؟ إنه ليس الحب الذي يجعلك تسمحين لرجل يكبرك بثمانية وعشرين عاماً، أن يطارحك الغرام في ظلام أحد المخازن».

«ماذا تقول؟»

وكانت تتكلم هامسة وقد شحب وجهها ثم أضافت:

«ماذا تعني؟ هل تظن أني أحاول جعل والدك يقع في حبي ويتزوجني؟»

فرد عليها يقول:

«وإذا كان الأمر غير ذلك فأنت تدهشينني. إذن ما هو غرضك؟

هل هو الحب بدون ارتباطات؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا الرجل الذي ترغبين، لأني من جيلك. وفي إمكاني تلبية طلباتك. فهل يقدر والدي على ذلك؟»

ثم مدّ يداً مثل حزام من الحديد وطوق بها خصرها وقال:

«وذلك؟»

ورفع يده الأخرى ووضعها على عنقها وأمال رأسها إلى الوراء حتى أطلقت صيحة ألم. ثم رأى الدموع تملأ عينيها، وعندئذ هوى، مثل الطائر المفترس على فريسته العزلاء، حتى أنها، مثل فريسة النسر الجارح، ارتمت بدون حراك، وبعد ذلك أزاحها جانباً بقسوة. وقصد النافذة وهو يصلح من ترتيب شعره.

ثم استدار وارتكز على حافة النافذة وقال لها بغضب:

«والآن اتركي والدي لحاله. وإذا لم تكفي عن الجري وراءه فسألقنك درساً وراء درس إلى أن أجعلك تخضعين لي خضوعاً كاملاً. وعندما يحين الوقت كي يتخذك زوجة له، سيكتشف أنه جاء متأخراً لأنك أصبحت لي».

ثم تركها وغادر المكان.

أخذت ماريتا تروح وتجيء في غرفتها حائرة. فوجودها كضيفة في هذا المنزل لم يعد ممكناً. في هذه الليلة وهم يشربون شراب الشوكولاتة سوف تخبر هارفورد، بكل هدوء، أن والدتها بحاجة إليها وعليها أن ترحل آسفة. وإذا كان رايان حاضراً فسوف تواجهه بهدوء مهما كلفها ذلك من جهد.

وعندما دخلت غرفة الاستقبال وجدت هارفورد وحيداً. فنظر إليها وقال لها بارتياح:

«تمنيت أن تحضري قبل رايان».

ثم أخرج صندوقاً مربع الشكل، وقال:

«ذهبت بعد الظهر واشتريت هذا بينما كنت مع رايان. ولم أذكر ذلك عند تناولنا العشاء لأني أردت أن نكون وحدنا عندما أقدمها لك».

ثم لمس يدها في شيء يشبه التقديس وقال:

«يا عزيزتي ماريتا. تقبلي هذه الهدية فقد اشتريتها لك».

فخفق قلبها. هذه هدية أخرى؟ ماذا تفعل؟ ماذا يكون رد فعل رايان إذا قبلت هذه الهدية؟ إنها خائفة منه. فهتفت تقول:

«لكن يا هارفورد لا يمكنني ذلك».

قال باهتمام:

«الكاميرا يا ماريتا هي قطعة أساسية من الأجهزة العلمية التي يستعملها المهتم بمراقبة الطيور. وبما أني لن أتمكن من إعارتك الكاميرا الخاصة بي دائماً فسوف تحتاجين إلى هذه الكاميرا عندما نخرج سوياً».

هزت رأسها وقالت:

«يا هارفورد ـ إنني ـ»

إنني ماذا؟ إنني لن أتمكن من الوصول إلى مستواك في الخبرة واهتمامك الزائد بتلك الناحية؟ هل تقول إنها لن تبقى هنا طويلاً كي تستعملها؟ نعم هذا ما يمكن قوله».

«يجب أن أرجع إلى منزلي يا هارفورد، فوالدتي طلبت مني أن أعود».

رفع يده وقال:

«لا داعي أن تقلقي على والدتك... كنت أنوي أن أخبرك أثناء تناول العشاء، ولكنني كنت منبهراً بحديث ابني، ولذلك نسيت إذ عندما رجعت من المدينة بعد الظهر تكلمت والدتك تليفونياً. فقلت لها إنك في الخارج. ولكنني ثرثرت معها لمدة وطلبت مني إبلاغك أنه يمكنك البقاء طالما أريد منك ذلك. وفي الحقيقة وجهت

إليها دعوة مفتوحة لزيارتك فوعدت أن تحاول الحصول على إجازة من عملها وتزورنا».

ثم عبس قليلاً وهو يقول:

«ولا أرى أي داع ألاّ تقبل الكاميرا يا ماريتا».

«أرجو ألا تحسبني ناكرة للجميل يا هارفورد ولكنني لا...».

وهنا دخلت السيدة فيسك حاملة صينية فيها أقداح الشوكولاته. ولما شكرها هارفورد قالت إنها سترى هل يمكنها إقناع الدكتور رايان بترك مكتبه والنزول أم يطلب منها إحضار المشروب إليه. فودت ماريتا ضارعة أن يفضل البقاء في مكتبه.

«ماذا يا عزيزتي؟»

قال هارفورد ذلك برقة وهو يشير إليها أن تجلس بجانبه.

«بدأت بالمنظار ثم بالكاميرا. لا يمكنني الاستمرار في تلقي هداياك من غير أن...»

لكنها كفت عن الكلام. وكانت تود أن تقول من غير أن أعطيك شيئاً مقابل ذلك. ولكن كلمات رايان كانت ترن في أذنها فقالت بلهجة ضعيفة:

«بدون أن أعطيك شيئاً يوازيها».

فضحك هارفورد وقال:

«لا تفكري حتى في ذلك. لست رجلاً فقيراً. وسوف أخبرك ذات يوم المزيد عن حياتي، ولكن لم يحن الوقت بعد».

ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

«لم يحن الوقت بعد».

وبدا كأنه انتقل إلى عالم خاص به. فشربت ماريتا الشوكولاتة وظل شراب رايان على الصينية.

وبعد برهة فتح الباب ووقع نظر القادم على ماريتا فرأى ذراع هارفورد ممدداً على الوسادة وراء ظهرها. ورأى الكاميرا.

تصلبت عيناه لما وقع نظره على ماركة الكاميرا وقدر ثمنها فقال وهو يتكلف المرح:

«اليوم عيد ميلادك؟»

وكان يعرف الجواب قبل أن يلقي السؤال. فودت ماريتا تقول وهي تنظر إلى الهدية وتضع أصابعها عليها:

«لا».

ورد والده يقول وهو يبتسم:

«أعطيتها الكاميرا. فسوف تحتاج إليها لتساعدها في تنمية اهتمامها بمراقبة الطيور».

«وهل ستقبلينها؟»

ألقى رايان على ماريتا هذا السؤال، ولم تخدع بالهدوء الذي لمسته في لهجته والذي خيل إليها أنه سؤال بريء، فقد استشفت من ورائه أنه ممزوج بالتهديد.

ثم رفعت رأسها بكبرياء وقالت:

«ولم لا أقبلها؟»

«وهل تعرفين كم كلفت والدي من ثمن؟ فهي واحدة من بين أغلى الأصناف الموجودة في السوق».

ملأ الدم وجهها فقد كانت ماريتا تجهل هذه الحقيقة. وارتفع صوت والده يقول والغضب يتملكه:

«هذا شأني يا رايان.. ولا يهم كم أنفق عليها».

ثم جذب ماريتا إليه ووضع قبلة على خدها وقال:

«فإذا أردت أن أعطيها نصف ثروتي...»

أخذ رايان رشفة من الشوكولاتة الباردة، ثم وضع القدح على الصينية بقوة وقال:

«أرجو أن تسمحوا لي بالذهاب».

ثم ترك المكان وخرج.

وفي صباح اليوم التالي أخبرتها السيدة فيسك أن الدكتور رايان تيودور غادر المنزل وسافر، ولا تعرف وجهته. فقالت:

«ربما إلى لندن يا آنسة نيويل. أحياناً يذهب بهذه الطريقة ولكنه يقول لي عن وجهته. أما هذه المرّة فلم يخبرني بكلمة واحدة ويبدو أنه ذهب الليلة الماضية لأن سريره لم يستعمل».

لم تظهر ماريتا اهتماماً كبيراً بالأمر ونظرت إلى مكان هارفورد على المائدة فوجدته خالياً. فعرفت أنه لم يتناول إفطاره بعد، ثم قالت:

«سأنتظر البروفسور تيودور يا سيدة فيسك».

فانسحبت السيدة فيسك، وفكرت ماريتا في غضب رايان من تصرف والده، فاهتمامه يرجع إلى نوع من الحب الأبوي. ولكن هل كان تصرفه في ظلام المخزن بناء على عاطفة أبوية؟ وكلمات الحب التي همس بها والعناق؟

ثم دخل هارفورد وقال:

«إنك تبدين منتعشة ولطيفة كعادتك دائماً».

وأشار إليها بأن تأخذ مكانها على المائدة ثم قال:

«لا أرى مكاناً لرايان. فهل تناول إفطاره؟»

إذاً فحتى والده لا يعرف بذهابه.

«تقول السيدة فيسك إنه سافر».

تقبل هارفورد الخبر بهزة من رأسه وقال:

«ربما ذهب إلى لندن حيث يوجد المكتب الأوروبي الرئيسي لشركة البترول التي يعمل فيها».

ثم نظر إلى ساعته وقال:

«لا بد أنه ذهب مبكراً».

«السيدة فيسك تظن أنه سافر البارحة. فسريره لم يمس».

رفع هارفورد حاجبيه دهشة ثم هز كتفيه وقال:

«هذه هي طريقته. فهو لا يحافظ على شعور الغير. إذا طرأت له فكرة ينفذها في لمح البصر. ولكن لن نضيّع وقتنا في التحدث عن ولدي لأنني ذاهب إلى المخبأ ثانية. فهل تأتين معي؟»

«ليس عليّ إلا أن أوافق».

هذا ما فكرت فيه ماريتا. وكيف أقضي وقتي؟ أليس هذا ما جئت له ـ أن أتعلم كل شيء عن هواية هارفورد المفضلة...

ولما جلسا معاً في المخبأ كانت ماريتا تنظر إلى الجهة التي يوجه هارفورد نظرها إليها، وتصمت كلما طلب منها ذلك. وتلمّ بكل المعلومات التي يلقيها عليها ثم تنساها لتوها. وكانت أفكارها تقودها إلى التمتع بأشجار الغابة والزهور على ألا تكون، كما تخيلت في أحلام اليقظة، وحيدة فلا بد أن يمشي بجانبها شخص طويل القامة يمسك بيدها ويتحسس أصابعها ويضحك في عينيها.

وأفاقت على هارفورد يصيح:

«إنه الطير الذي أنتظره إنني أميّز غناءه وهو صوت مثير. انظري يا ماريتا انظري هناك».

ثم رفع غطاء الباب قليلاً وقال:

«استعملي منظارك... هل يمكنك رؤيته الآن؟»

وحاولت ماريتا، أن تراه بالمنظار. ولاحظ هارفورد محاولتها اليائسة فقال لها ليساعدها:

«إن ظهره بني اللون بخطوط قاتمة. وهو صغير الحجم لكنه مميّز فلن تخطئيه».

ولكن ماريتا لم تتمكن من رؤية الطير، فشجعها هارفورد قائلاً:

«انظري ثانية. ولا تيأسي بهذه السرعة».

ولكن كيف تقول له إنها خائفة أن تنظر ثانية حتى لا ترى ابنه يظهر مرة أخرى في عدسة المنظار وهو قريب منها بحجمه المكبر!

قالت وهي تقاوم رغبته في إعادة الكرّة للعثور على الطير:

«لا فائدة في تجاهي... فأنت تضيّع وقتك معي يا هارفورد».

وفكرت... إن كل ما تريد معرفته هو ذلك الخيال الذي رأته. وماذا تعني تلك الرؤيا؟ هل هي تريد مجيئه ثانية. وهل تود أن تكون بين ذراعيه ثانية.

ولا بد أن هارفورد قرر ألا يضغط عليها بشدة. لأنه تركها بعد ذلك لأفكارها وأخيرها، وهما يتناولان الغداء، أن اجتماع هواة الطيور سيتمّ بعد أربعة أيام، وأنهم سيتناقشون في الموضوع وينفقون ما بقي من وقت في الحديث.

وعندما كان هارفورد يحييها بعد انتهاء السهرة مال عليها وقبلها برقة وهمس قائلاً:

«ألا يغضبك هذا يا ماريتا؟»

فهزت له رأسها بالنفي لأنها لم تشأ أن تغضبه. فليس في قبلة هارفورد ما تعترض عليه. ثم قفز عقلها أربعا وعشرين ساعة إلى الوراء، وأخذت تفكر بدون إرادتها في ابنه.

ومرت ثلاثة أيام بدون أي خبر عن رايان وشعرت ماريتا أن الوقت يمرّ ببطء وكأنها تنتظر شيئاً. وكانت تقصد المخبأ كل صباح بإصرار وتقضي الساعات كلها حتى وقت الغداء بجانب هارفورد، والسهرة في تكريس نفسها لقراءة كتب هارفورد ولكن لم تكن لديها القدرة على التركيز.

وفي الليلة الثالثة كانت وحدها لفترة فألقت بالكتب جانباً وقصدت النافذة لتطل على الحديقة...

واشمأزت ماريتا من نفسها، فاستدارت إلى الغرفة إذ يجب أن تكف عن تعذيب نفسها بالتفكير في رايان تيودور. ثم شعرت بالقلق وقصدت التليفون، وكان هارفورد قد سمح لها باستعماله، عندما تريد، وسمعت صوت والدتها في الجانب الآخر من الخط واضحاً منشرحاً فرفع من روحها المعنوية وأعطاها الشعور بالراحة والعزاء.

سألتها والدتها عن حالها وهل هي بخير وهل تستمتع بوقتها ثم قالت:

«تكلمت مع البروفسور ووجدته لطيفاً جداً. وكان قلقاً عليك وأراد أن يعرف إذا كنت سعيدة هناك».

ثم قالت لها باهتمام:

«هل أنت سعيدة؟ وهل تريدين أن أحضر للاقامة معك؟ فقد قال لي إنه يرحب بي في أي وقت أشاء».

ثم فكرت ماريتا... ما معنى حضور والدتها للاقامة هنا؟ إن حضورها سوف يزيد الأمور تعقيداً. ثم أسرعت وقالت لوالدتها:

«لا تحضري لأجلي. وطبعاً إذا أردت ذلك...»

ولا بد أن والدتها لاحظت عدم تشجيعها فلم تناقشها في الموضوع أكثر ولكن ماريتا قالت:

«إن رايان ابن هارفورد...»

ارتفع صوت جوزفين بالاهتمام وقالت:

«هارفورد، هل هذا هو اسم البروفسور؟ وهل له ابن؟ لم تقولي عنه شيئاً. وما عمره يا عزيزتي؟ وماذا يعمل؟ وما شكله؟»

ردت ماريتا على كل أسئلتها فهي تعرف ماذا تعني والدتها وماذا تأمل. البروفسور كبير في السن، أما ابنه ـ وفي حساب سريع يمكنها تقدير سنه ـ فهو مناسب لها. ثم قالت:

«يسعدني أن يكون بجانبك شخص يقارب سنك. لا تقلقي عليّ يا عزيزتي ماريتا وابقي كما تريدين».

وجاء أصدقاء هارفورد إلى المنزل. أخذوا ينظرون بدهشة إلى فخامة البهو. وكان هارفورد قد أبقى ماريتا إلى جانبه. وكان يبدو أنه يعرضها لهم ليفهموا أنها صديقة حميمة، ويضع يده على ذراعها وكأنه يوهمهم أنها أصبحت فرداً من العائلة وجزءاً من حياته.

لم يكن رايان هنا، بل هو يبعد عنهم بأميال كثيرة. فهو في لندن وعلى ذلك فإن الذي لا يراه لن يعرف به.

وأغراها ذلك الخاطر فجلست بجانب هارفورد وهي تشعر بالراحة والاطمئنان.

وكانت هناك نظرات موجهة إليها من أصدقاء هارفورد.. النساء ينظرن بدهشة والرجال بطيبة وشيء من الحسد.

وكان الحديث يدور بالطبع حول حياة الطيور، وعن ملاءمة منطقة نور فولك لمراقبتها، ووجود أندر الأنواع فيها. وعن قلقهم وخوفهم من التلوث الذي يؤثر على الأنهار والبحيرات في نور فولك. فلا بد من عمل شيء للحفاظ على المنطقة.

ثم فتح الباب، وبرهة انتقل الاهتمام من الشخص الذي كان يحادث المجموعة

إلى القادم الذي بدا على عتبة الباب طويل القامة وشعره البني الفاتح على جبهته يطوف بنظره في المكان فوقعت عيناه على والده اولاً ثم على الفتاة الجالسة بجانبه وسمع أحد الضيوف يقول:

«أهلاً رايان».

ثم ردد التحية الحارة كثيرون غيره.

هز رايان رأسه محيياً، وابتسم لكنه لم ينسحب بل أخذ يبحث عن مقعد يجلس عليه. وبالصدفة نظرت المرأة الجالسة بجانب ماريتا الى الساعة الموضوعة على المدفأة وقالت:

«لا بد أن أذهب فلدي موعد في نور ويتش. إني أكره الذهاب قبل تقديم الطعام. ولكن...»

انفجر الحاضرون ضاحكين ثم أضافت:

«خذ مكاني يا رايان واجلس بجانب هذه الشابة اللطيفة صديقة والدك».

شعرت ماريتا بقلق عند سماعها هذا الكلام. لكن هارفورد ارتاح لها فنظرت إلى ابنه ولعبت ابتسامة خفيفة على شفتيه. ولاحظت ماريتا هذه الابتسامة وهي تلتفت إليه فتعجبت لها. لأنها لم تكن ابتسامة ترحيب بل ابتسامة انتصار. وكان الأجدر به أن يرحب بابنه، بعد هذه الغيبة الطويلة، لا أن يستفزه. ثم سمع والده يقول:

«نعم يا رايان. أجلس بجانب شابتي اللطيفة».

نظر ابن البروفسور طويلاً إلى صديقة والده الشابة. ثم مشى متمهلاً نحوها ولا بد أنه لاحظ احمرار وجهها وحركاتها المتوترة، وهو يأخذ مكانه بجانبها. وابتدأ أحدهم بالكلام لكن ماريتا لم تتمكن من سماع ما يقولون بل كانت حبيسة في موقف محرج بين الأب والابن، ثم همس رايان لها قائلاً منتهزاً ارتفاع صوت أحد المتكلمين:

«لا تخافي يا حبيبتي. فلن أكلك... الآن... سأبقي هذه المتعة إلى ما بعد».

وأتاها الغضب لهذه اللهجة التي استعمل فيها كلمة التدليل. فقالت له بشدة:

ثم ضغطت يد هارفورد على يدها وبقيت فوقها. فهو الآن يتباهى بملكيته لها أمام كل أصدقائه. وهذه المرة كان ابنه بينهم.

وخلال المناقشات، التي كانت استحوذت على اهتمام ماريتا من قبل ثم بدت الآن طويلة ومملة، كانت ماريتا تشعر بوجود رايان بجانبها فكل حركة يقوم بها وكل كلمة يقولها كانت تسجل على جسمها المتوتر.

لماذا رجع في تلك اللحظة؟ ولماذا تركت له الضيفة هذا المقعد بالذات؟

وشعرت ماريتا بالراحة عندما نقرت مشرفة المنزل على الباب ودخلت لتدفع عربة الطعام المحملة بالشطائر والقهوة. وبينما كان الضيوف يأكلون بشهية، انتقل هارفورد بين أصدقائه ثم جلس في آخر الغرفة مع فريق منهم. وبقيت ماريتا مع رايان. وكانت غير متأكدة من حالة مزاجه فنظرت إليه ولكنه ابتسم وقدم لها إحدى الشطائر بحركة استخفاف خالية من الود. ثم قال لها:

«تبدين شاحبة ومجهدة. هل افتقدتني لهذه الدرجة؟»

ولكنها لم ترد أن تهزم بلهجته هذه فردت تقول:

«وهل كنت غائباً؟ إنني لم ألحظ ذلك».

فأطلق ضحكة لفتت انتباه أحد الضيوف. وكان الرجل رمادي الشعر محتقن الوجه يصل طوله إلى كتف رايان فترك أصدقاءه وقصدهما ثم قال:

«كيف حالك يا رايان؟ سمعت أنك عدت قريباً من الخارج. متى ستنتهي سفراتك؟»

«لن أنهيها إذا أمكنني ذلك يا سيد ويلمر. ولدت لأكون جوالة».

«ألا تنوي الاستقرار؟»

ونظر السيد ويلمر الى ماريتا وأردف يقول:

«ألا توجد امرأة في حياتك تقيدك هنا؟»

فهز رأسه بشدة وهو ينظر إلى ماريتا بقسوة ويبتسم:

«لن تتمكن أي أنثى أن تقيدني إلى مثل هذا المصير. فإذا كان قدري أن أجوب العالم من خلال عملي، لا أشكو من ذلك لأنني أقدس حريتي كما يقدس بعض

الرجال زوجاتهم».

تمتمت ماريتا على شفتيها... الحرية... لكم كرهت هذه الكلمة وضحك السيد ويلمر عالياً وقال:

«سيأتي اليوم يا رايان وتجد نفسك واقعاً في فخ عينين جميلتين».

هز رايان رأسه ثانية وقال:

«تمتع بالحب ثم ألقه جانباً واذهب. هذا هو دستوري في الحياة».

وضعت ماريتا فنجان القهوة بدون أن تكمله فنظر إليها رايان ورفع حاجبيه ولكنها أدارت رأسها وتلافت نظراته.

ثم سأل السيد ويلمر ماريتا:

«هل رأيت معالم نورفولك يا آنسة نيوبل؟»

ردت عليه ماريتا بالنفي، فاستطرد:

«إن فيها ما تسرّ النظر فهناك هنغام، وهي وثيقة الصلة بتاريخ الولايات المتحدة القديم - اذ هرب أحدهم ويدعى روبرت يك وكان من المتدينين المضطهدين، إلى امريكا وأسس هناك مدينة هنغام في ولاية ماساتشوسيتس وآخر يدعى صموئيل لنكولن ذهب أيضاً إلى هناك. وكان الرئيس أبراهام لنكولن سليله المشهور. وفي جنوب هذه المنطقة مدينة تيتفورد حيث والد توماس باين مؤلف كتاب حقوق الانسان وعلى مقربة من هنا أيضاً تقع غريمز غريف حيث عاش إنسان ما قبل التاريخ. وكان يعمل في مناجم الأحجار الصلدة. وبقي منجم منها مفتوحاً. يجب أن تقوم بواجبك، يا رايان، نحو الآنسة نيوبل وتريها معالم شرق انغليا وخصوصاً المناجم التي من اختصاصك. أليس كذلك؟»

فهز رايان رأسه وقال:

«إنك تقع في الخطأ المعهود. فهذه حفريات وليست جيولوجيا وشرق انغليا حديثة العهد نسبياً ولا تهم الجيولوجي كثيراً».

ضحك السيد ويلمر وقال:

«هكذا يتكلم الانسان الممتاز؟

«الممتاز؟ لا أظن ذلك. الحفريات مثل الجيولوجيا موضوع هام يتطلب تاريخ تطور الجنس البشري، ولكن الجيولوجيا لها مجال آخر».

وانضم هارفورد إليهم، ورجع السيد ويلمر يصرّ ويقول:

«تعتقد أن أحد فروع العلوم يتفوق على الآخر؟»

فنظر إلى أبيه وقال:

«قطعاً لا. إن حب العلوم هو الشيء الوحيد الذي تتشارك فيه أنا وأبي...»

قال السيد ويلمر:

«القصة المعهودة يا هارفورد! الابن يثور على الأب؟ الجيل الجديد يثور ضد القيم التي حركها الكبار»

وقبل أن يتمكن هارفورد من الرد قال رايان:

«هذا صحيح. إن قيمي الأخلاقية لا ولن تتوافق أبداً مع قيم والدي...»

فرد هارفورد والغضب يملأ عينيه:

«لا تتكلم عن الأخلاقيات يا ولدي. فإنك لا تملك منها شيئاً. ولن تفعل».

ثم التفت إلى صديقه وقال:

«آسف يا هاري، انه صعب المراس دائماً. وقد أصبح في سن يصعب معها أن يغيّر من عيوبه».

وضع رايان صحنه الخالي وهز رأسه للسيد ويلمر وخرج من الغرفة.

فتنهد هارفورد وقال:

«من حسن الحظ أنه لا يبقى طويلاً هنا وإلا ستظل الحرب سجالاً بيننا. تعالي يا عزيزتي وتعرّفي بأصدقائي فإني أود أن أتباهى بشابتي اللطيفة كما وصفتك ضيفتي».

وتبعت ماريتا هارفورد أينما ذهب. ولكن أفكارها تابعت رايان بعد خروجه.

٦ ـ الرجل الخشن

رأت ماريتا رايان ذلك المساء، عندما نزل إلى غرفة الاستقبال لتناول مشروب نهاية السهرة، وبينما شرب كل من ماريتا وهارفورد الشوكولاته طلب رايان القهوة.

وبينما كانت السيدة تقدمها له قالت:

«أعددت القهوة كما طلبتها يا دكتور تيودور، ولكن لن تتمكن من النوم مع هذه القهوة الثقيلة.»

فابتسم لها رايان ابتسامة خفيفة وقال:

«أنا محتاج للبقاء مستيقظاً يا سيدة نيسك فلدي عمل متأخر أود إنجازه، تغيبت خمسة أيام وبالرغم من ذلك لم يلحظ غيابي أحد.»

«بل أنا لاحظت ذلك، فتقديم الطعام الذي لا يناسب شهية أبيك وشهية الآنسة تيوبل لا أعده عملاً مسلياً، انهما يأكلان كميات ضئيلة وأنا أتساءل كيف يظلان بصحة جيدة.»

انحنى رايان إلى الأمام يحرك قهوته التي وضعها على منضدة منخفضة، ولما رفع نظره أخذت عيناه تطوفان بمفاتن ماريتا التي بجانب والده، ثم قال:

«إن الآنسة تيوبل، على الأقل تبدو في قوام رشيق.»

وفهم هارفورد مغزاه فصعد الدم إلى وجهه، وهب واقفاً وقال:

«تعالي يا ماريتا لتنامي.»

فتجمدت الابتسامة على وجه رايان وقال:

«وهل تحرس بابها لتبعد الذئب عنه يا أبي؟»

فبدا وجه هارفورد الملتحي بعظام خديه العالية وعينيه الذكيتين يميل إلى التحول ثم قال وصوته مفعم بالألم:

«لن أدعك تقترب من هذه الفتاة يا رايان.. لن تمسها. هل تسمعني؟»

«كلامك جاء متأخراً.»

وكان رايان يتكلم بكسل ويميل إلى الوراء في مقعده ويمسك فنجان القهوة بين كفيه ثم أكمل يقول:

«عرفتها من عشرة أو اثني عشر يوماً. وانا كما هو معروف عني أعمل بسرعة، أليس كذلك؟»

وكانت عيناه جامدتين كالصلب.

فضغطت ذراع هارفورد، التي كانت تطوق كتفي ماريتا، عليها بقوة وسألها:

«هل هو.. هل...؟»

فنظرت إلى وجه هارفورد وتذكرت عناق رايان ورنّ صوته في مخيلتها وتهديده بمعاقبتها إذا لم تدع والده وشأنه، وإجبارها على الخضوع التام له. فهل لمسها؟ بل فعل أكثر.

نظرت ماريتا إلى رايان ورأت ابتسامته الجامدة تحذرها ألا تقول الحقيقة فكذبت عليه قائلة:

«لا يا هارفورد فهو لم يمسني.»

قادها هارفورد إلى الباب ورأت الارتياح يبدو في عينيه. لكن ابنه لم ينته من كلامه بل قال:

«اصطحبها حتى غرفة النوم وليس الى الفراش وتذكر أنك ولدت رجلاً مهذباً وتتمتع بأخلاقيات العهد الماضي.»

فالتفت هارفورد بسرعة وقال للمرة الثانية تلك الليلة:

«لا تحاضرني عن الأخلاقيات يا رايان. فمستواك الأخلاقي وافتقارك إلى المبادئ، من حيث تصرفك مع النساء، يجعلني أشعر بالاشمئزاز وإني أكرر قولي:

دع هذه الفتاة وشأنها»

تمكن هارفورد من اجتياز الهوة الفكرية السحيقة التي تفصلها ورفع مركزها الاجتماعي لتكون نداً له. وربما لا تعرف سبباً لذلك. لأنها متأكدة أن رجلاً صامتاً مثله ـ لا يتكلم عن شعوره الداخلي أبداً ـ لا يمكن أن يصارحها بشيء.

لكنها عرفت الآن. لأن ذراعيه طوقتاها وعانقها كما يعانق الرجل امرأة تروق لرغباته. ولم تحاول التخلص منه. ثم سمعا صوت ابن البروفيسور يقول بلهجة باردة مثل عصا من الصلب البارد وهو يمرّ بهما:

«أرجو المعذرة»

جذب هارفورد ماريتا اليه وأطبق عليها بحرارة.

استيقظت ماريتا مبكرة في الصباح التالي. وكان الذي أيقظها غناء طير ألحّ في غنائه وهو واقف على شجرة قريبة من المنزل. فارتدت ملابسها بسرعة ولكنها لم تقفل أزرار القميص بل ربطت حرفيه فبدا جزء من وسطها عارياً.

ثم فتحت الأبواب وأزاحت الرتاج. وأصبحت طليقة كالطير في ذلك الصباح الذهبي. وتمتعت بلسعة الهواء، وشعرت بالحشائش المبللة بندى الصباح تداعب أصابع قدميها.

والتفتت عينا ماريتا إلى المنزل، وبحثت في النوافذ ولكنها لم تجد أي شخص يراقبها فخلعت صندلها وألقت به جانباً، وتمتعت بلمس الحشائش الخضراء الناعمة المغطاة بالندى، تحت قدميها. وحملت الكاميرا فوق كتفها وقصدت مخبأ هارفورد. لكنها لم تدخله بل صممت أن تفعل ما كانت تتمناه وتفكر فيه وهي جالسة على مقعدها بجانب هارفورد وذلك أن تذهب الى الغدير.

جلست ماريتا على البرّ وشمّرت ساقي البنطلون ثم أنزلت قدميها في الماء. وهي تحز على أسنانها لبرودته. وراحت تحلم بينما الشمس تدفئ ظهرها وتلمع في شعاع ينزل من بين الأغصان ومن خلال جذوع الأشجار المحيطة بها.

وأخذت تفكر.. إن البروفيسور لا يمكنه أن يفعل ما تفعله الآن. فهناك فترة طولها ثمانية وعشرون عاماً بين عمريهما.

وسمعت صوت أقدام فالتفتت بسرعة. هل هو هارفورد؟ لا بل ابنه وربما أنها

كانت جالسة على الأرض تضاعف طوله وأحاله إلى عمود هائل من الرجولة.

وكان قميصه محلول الأزرار يغطي يديه اللتين أدخلهما في جيبي بنطلونه.. كما كان مفتوحاً يكشف عن صدره الذي كساه الشعر البني الغزير. ولاحظت عرضه ورجولته الجريئة. ورفعت نظرها نحوه، فكأن ما رأت حرك وتراً من الشفقة في داخلها. وراح هذا الوتر ينبض ويلتوي بشكل لا يحتمل فهو لم يذق النوم تلك الليلة.

وسألها:

«ماذا بك؟ هل أنت خائفة. لن أفعل بك ما تخافينه والذي فأرغمك على طاعتي وأغريك؟»

ثم هز رأسه ورجع يقول:

«اطمئني . فإنني عندما أنفذ هذا العمل البربري فسوف أتأكد أولاً أن يكون لدي المزيد من القوة عن الآن. فبعد أن قضيت الليل جالساً أمام مكتبي. لن أحتاج إلا الى النوم. وليس العلاقات الغرامية»

وظلا فترة صامتين وكان سكوتهما يتخلله غناء الطيور. ولكنها أرادت أن تنهي ذلك الصمت فقالت:

«إنه صباح جميل»

ولكنها لم تجد صدى لملاحظتها العادية. ثم ردّ عليها وقال بدون حماسة:

«نعم...»

«كيف عرفت أنني هنا؟»

«كنت اراقبك من النافذة»

«ألم تتمكن من النوم؟»

«أنا لم احاول ذلك»

«ولكن كيف تقضي النهار وأنت لم تنم الليل؟»

فرفع كتفه وقال:

«انا معتاد ذلك ويمكن للمرء أن يستغني عن أي شيء عند الضرورة»

ثم تمدد على الأرض ووضع يديه تحت رأسه وقال:

«ويمكن للمرء التأقلم على الاستغناء عن أشياء كثيرة.»

ولم تتأكد ماريتا من معنى كلامه لكنه مسّ ثانية ذلك الوتر الحساس من الشفقة الذي يكمن بداخلها، ولكنها عجبت لشعورها بالشفقة نحو ذلك الرجل القاسي الأناني. فقالت له هامسة:

«تقصد والدتك؟»

ثم التفت إليها فرأت عينيه الرماديتين كسماء الشتاء تنظران إليها ببرود وقال:

«السؤال في غير محله.»

شعرت ماريتا بالحرج، وأرادت أن تصلح من خطأها فقالت:

«على الأقل إن لك أباً.»

فرد عليها بلا حماسة يقول:

«وهل لي أب حقاً؟»

ثم مرّت فترة صمت. فوضعت ماريتا ذقنها على ذراعيها وسمعته يقول:

«إنه فقد عقله لأجلك.»

وبذلك ألقى إليها بالتحدي، ولكنها لم تشأ أن تقابله بمثله، إلا أنه عاد يقول بإلحاح:

«ماذا تنوين عمله؟»

وبدلاً من أن ترد قالت:

«انت مخطىء. إنه يعتبرني صديقة له، ورفيقة مسلية»

«وذلك العناق الليلة الماضية. هل يدل على أنه يتخذك رفيقة له؟»

ولم تعترف أنه على حق فقالت:

«فعل ذلك ليثيرك.»

فرفع رأسه وقال:

«ليثيرني؟ هل تقصدين ليثير غيرتي؟»

ثم أغلق عينيه وتقوست شفتاه في سخرية.

«إنك مغرورة بنفسك. فلماذا أهتم بفتاة نصف متعلمة غريرة...هي مجرد مساعدة صغيرة في العمل»

ثم هبّ واقفاً وأمسك برسغيها بيدين كمخالب الطير الجارح ودفعها فوق رأسها، وقال:

«أيتها الماكرة الشريرة.. حاولت أولاً أن تغري والدي، والآن تحولين اهتمامك إليّ؟ فأيا ماتريدين؟فكري في ذلك.»

ارتجفت شفتاها وانبثقت الدموع من عينيها.. كيف لا يفهمها! نهضت تقول:

«أرجوك، إنك تؤلمني.»

ولكنه تظاهر بأنه لم يسمعها وقال:

«متى تنوين أن تتركي والدي وشأنه.»

وأخذ جسمها يتقلص وتحاول الافلات منه ثم قالت:

«إنك مخطئ، فالأمر عكس ما تظن.»

وبقي ممسكاً بها لا يود أن يتركها ولكنه قال:

«ولكنك لا تمانعين في اهتمامه بك؟»

فهتفت تقول:

«ولماذا أمانع! انه رجل طيّب وعادل وأمين وشغوف بي.»

«وطبعاً هذه الصفات لا اتصف بها.»

«نعم، لا تتصف بها فأنت قاس لا تحتمل وأنت...»

لم تكمل عبارتها لأن فمه قد اسكتها.

وكانت تخاف الخطوة التالية. فأرادت أن تقف ولكنه وضع ذراعه على عنقها فأبقاها راقدة، ثم نظر إليها وإلى شعرها المنسدل وعينيها اللوزيتين وإلى فمها المكتنز. وتعلقت عيناها الرماديتين بعينيه الرماديتين. ثم ضحك فجأة وأخذ مزاجه يتغير، وقال لها:

«كفي عن العراك معي أيتها الشريرة. وارقدي هادئة بجانبي.»

ثم مد ذراعه تحتها وجذبها بقوة وتنهد بارتياح وهو يدفن وجهه في شعرها ويستنشق عبيره قائلاً:

«مضى زمن طويل لم أتمتع فيه بالسلوى مع امرأة.»

شعرت بالاثارة، فأرادت أن تتخلص منه ولكنه أبقاها بسهولة فقالت متوسلة:

«أرجوك يا رايان. هذا خطأ إذ لا يجب...»

فرفع ذراعه ووضعها على وسطها وقال:

«اصمتي. أريد أن أشعر بالسلام. هذا كل ما هنالك.»

وكان سهر الليل كله قد أجهده فنام لتوه، ولكن ذراعه التي طوقت ماريتا لم تنثن فظلت ممسكة بها، ولكن برقة... وأمسكت عن التنفس خوفاً من إفلاته.

وسمعت وقع أقدام تقترب، وبما أن أذنها كانت بجانب الأرض أمكنها سماعها بوضوح. وكانت الأقدام قاصدة مكانها، وظنت أنها أقدام هارفورد قاصداً المخبأ.

فجاهدت حتى تخلصت من ذراع رايان ثم جلست وابتعدت قليلاً عن جانبه.

ووقف هارفورد ينظر إليها... ينظر أولاً إلى ولده النائم ثم إليها فحبست أنفاسها وسمعته يقول:

«لماذا أجدك هنا؟ فإفطارك ينتظرك.»

وتساءلت عن مدى فهمه أو تأويله لما رأى. فصممت أن تقول الحقيقة:

«استيقظت مبكرة يا هارفورد ولم أقاوم الخروج واستقبال الشمس في الصباح الباكر.

«ورايان؟»

«وكان رايان يعمل طوال الليل.. فلما رآني لحق بي. وبما أنه لم يغمض له جفن فقد نام كما ترى.»

هز هارفورد رأسه وبدا كأنه اقتنع بما قالته. ثم سمعا رايان يهمس وهو يتكلم في نومه ويقول:

«أين ذهبت تلك الفتاة؟ تلك التي كانت بين ذراعي؟»

ففزعت ماريتا ونظرت إلى هارفورد وقالت:

«إنه يحلم يا هارفورد، ولا بد أنه يفكر في صديقته.»

ثم حاول رايان الوقوف وهو يقول:

«ها هي.»

تشهقت ماريتا وقالت:

«والدك... والدك هنا يا رايان.»

فتركها رايان ومسح وجهه بيده ثم ابتسم وهز رأسه في حيرة وقال:

«إنني أجزم بل أقسم أنك كنت راقدة بجانبي.»

ثم أفاق واستيقظ تماماً ورجع يقول:

«إنني أقسم أنها أنت.»

فوقفت ماريتا مضطربة وقالت:

«يا رايان إنك تحلم بصديقتك.»

ثم رقد ثانية وارتكز برأسه على ذراعه وقال:

«نعم. كنت أحلم ولكن بغير دورين.»

وابتسم ثانية وهو يستمتع باضطراب ماريتا.

ثم نظرت ماريتا إلى هارفورد وأرته الكاميرا وقالت له:

«أتيت كي أصوّر الطيور يا هارفورد. ولكن رايان وصل قبل أن أبدأ في التصوير و...»

فزال التوتر الذي اعترى هارفورد وقال:

«يا عزيزتي ماريتا... لو كنت قد أخبرتني بغرضك للحقت بك بكل سرور... بعد تناولك الافطار.»

ثم قادها إلى المنزل وهو يطوّق كتفيها بذراعيه.

ولما ارتقيا الدرج تركها هارفورد أمام غرفة الطعام وقال:

«تناولي إفطارك ثم تعالي إلى المخبأ حيث تحديثني...»

ووجدت نفسها وحيدة مع رايان في غرفة الطعام. فقال وصوته مملوء بالسخرية:

«يا إلهي. لقد تصرفت بمهارة. هل كنت معي لتصوّري الطيور؟ إنك فكرت بسرعة فائقة، وأنا أنحني لك بالرغم من أنك فتاة ذات تفكير محدود ولست متعلمة.»

ولما استفزها حاولت الوصول إليه لتصفعه ولكنه أمسك برسغها وقال وعيناه تبرقان:

«إنني أملك الدليل ضدك وسوف أستعمله عندما يأتي الوقت المناسب».

ولما شعرت بالألم أفلتت من قبضته وقالت:

«قلت الحقيقة لأني كنت أنوي التصوير فعلاً. ولم اخترع هذه القصة. وبما أن تفكيرك ملتو تظن أن الكل له مثل هذا التفكير».

وبحركة آلية هجم عليها ولكنها تراجعت إلى الوراء في الوقت الذي فتح فيه الباب ودخلت السيدة فيسك حاملة صينية عليها أطباق الافطار فجلس أمامها والتقط الشوكة والسكين ثم نظر إلى ملابسه وهب واقفاً وقال:

«معذرة لوجودي على المائدة وانا نصف عار. فهل تحذين حذوي؟»

ولم تتمكن من أن تحذو حذوه وتفك أزرار القميص لأنها لو فعلت لا بد أن تحل ربطة القميص أولا. فهزت له رأسها واستمرت في الأكل.

ولكنه قال لها وهو ينظر إلى كتفه:

«انظري إلى آثار المخالب هذه ودققي النظر فيها. لقد أصبت بها هذا الصباح من إحداهن عندما فقدت السيطرة على شعورها. ألا يحسن بك الاعتذار؟»

فانتابها ألم لأنه أدهشها واعتذرت له. واستدارت ولكن يده امتدت وجذبت ذراعها وسمعته يقول:

«اذا كشفت هذه الآثار لوالدي فماذا يظن بك. هل يظن أن احدالهم يمسك؟ وأنك بريئة؟ هل يود عناقك ثانية؟ فلا بد أن يدفعك إلى الوقوع معه في المشاكل إذا اكتشف أنك تذهبين مع ابنه في مزاحك إلى حد الخدش والقتال».

«كيف تغيّر الحقيقة إلى نواياك الخبيثة. وانت السبب».

ثم تركته واتخذت مكانها ثانية على المائدة وسمعته يقول.

«إنك في لبشني الآن تمادي في علاقاتك الغرامية مع أبي...»

فبلعت ماريتا ردها القاحم. وجلست في مقعدها. انه يستفزها الآن عمداً. وجلس في كرسيه وقال لها:

«أرجو ان تعذري هذه الملابس فماذا تنتظرين من رجل البترول الجاف».

ثم نظر إلى بلوزتها وقال:

«في أي حال إن ملابسي تشبه ملابسك. فإذا أمكنك الجلوس إلى مائدة الطعام وأنت تكشفين عن جسمك فيمكنني أن أفعل المثل».

ثم سكب لنفسه بعض القهوة ولم يقدم لها شيئاً منها، وبعد ذلك أخذ يقرأ الجريدة ولم يتكلم ثانية إلى أن قامت ماريتا لتغادر الغرفة وهنا قال:

«سوف أذهب إلى تورويش بعد الظهر لآتي بالكاميرا التي أتلفتها. هل تودين الذهاب معي».

«لا وشكراً. فإن لدي أشياء هامة لانجازها».

وكان ردها بارداً.

«كما تريدين».

ولم تفعل شيئا مهما كما أخبرته بل خرج هارفورد أيضا ولم يخبر ماريتا ولكنه أكد لها أنه راجع للعشاء. واختفى رايان أثناء الصباح وقدرت ماريتا أنه قد تناول طعام الغداء في مكتبه.

ودق جرس التليفون بعد الغداء مباشرة فنادت السيدة فيسك على رايان وسمعته ماريتا يقول:«دورين.

وطالت فترة بعد الظهر، وكان هارفورد قد أعطاها مزيداً من الكتب عن حياة الطيور فأخذت تدرسها لمدة ولكنها ألقتها جانباً وقصدت النافذة وذلك عندما اكتشفت أنها لا يمكنها التركيز ثم نظرت الى الساعة وعرفت أنه الوقت الذي ترجع فيه والدتها من عملها، وكان هارفورد قد أذن لها في استعمال التلفون كلما أرادت ذلك. ففكرت أن تتصل بها تلفونيا. وسألتها والدتها:

«هل تخرجين للنزهة، وهل تزورين الريف؟»

«إن هارفورد مهتم بمراقبة الطيور ولذا لا نخرج كثيرا. ولكني ذهبت إلى تورويش مرة واصطحبني رايان».

«رايان؟ أنا سعيدة لأن معرفتك به زادت. وهل هو لطيف معك يا عزيزتي؟»

«لطيف معي؟»

ليت والدتها تعلم. ثم قالت لأمها:

«إنني لا أراه كثيراً»
ثم أردفت تقول:
«إنه يجمع العمل بالاجازة. وقد ذهب بعد ظهر اليوم ليقابل صديقته»
فردت جوزفين تقول وقد ضعف صوتها واعترته خيبة الأمل:
«صديقته! فهمت»
وكانت ماريتا تعلم مدى تفكير والدتها. فلا بد أنها تفكر وتقول «كيف يحق لأي إنسان أن يفضل امرأة أخرى على ابنتي؟»
ولكن كل ما قالته جوزفين هو:
«حسناً هل تريدين أن أحضر للاقامة عندك يا عزيزتي»
إن فكرة زيارة والدتها أصبح أمراً مرغوباً الآن.
وأردفت والدتها تقول:
«أنا مشغولة الآن ولكن ربما أحضر الأسبوع المقبل أو الذي بعده. وربما»
ثم أنهت ماريتا المكالمة. ثم سمعت صوت سيارة هارفورد فذهبت إلى غرفة الاستقبال لتنتظره. ولما دخل الغرفة برقت عيناه وابتسم. ثم قال:
«عندي شيء لك»
ثم أخذت الرزمة الصغيرة منه وراح يراقبها وهي تفتحها وتقول:
«هدية أخرى! ولكن يا هارفورد لماذا؟»
ولما فتحت الزجاجة وجدتها زجاجة عطر ثمينة وكان عطراً مشهوراً غالي الثمن.
فدمعت عيناها وقالت وهي تحاول استعادة توازنها.
«أنا شديدة التأثر يا هارفورد. كيف؟»
«طلبت أغلى عطر في المحل فأعطوني هذا الصنف. فهل اعجبك؟»
«كيف لا يروق لي وأنا أدرى بقيمته. ولكنني لم أقربه. ولم أشمه قبل ذلك فهو عطر جميل رائع. وسوف أستعمله عندما أبدل ملابسي للعشاء»
ثم هز رأسه إليها راضياً ثم قال:
«أنا قد اشتريت لنفسي عدداً من الملابس الجديدة فمرآتي قد ملت من عكس صورة ذلك الاستاذ الجامعي غير المهندم»

وضحكا معاً. وقال:
«إنك لطيفة يا ماريتا، وأنت كل ما...»
ثم كفَّ عن الكلام وهز رأسه وكأنه يعنف نفسه.
وكانت ماريتا ترتدي وقت العشاء ثوباً مفتوح الرقبة. وتلحفت بشال رايان واستعملت عطر هارفورد. أما هارفورد فقد أبدل ملابسه أيضاً. ولدى دخوله شهقت دهشة فقد اختفى مظهر البروفسور المهمل. وبدا كأنه يساير العصر. ومع تغيير ملابسه تغيرت كذلك تصرفاته فأصبح أقل تحفظاً. وأكثر وعياً للأحداث التي تحيط به بدلاً منْ حبس نفسه في عالم خاص به.
فقالت له ماريتا وهي معجبة بشكله:
«إنك رائع»
«إنني سعيد بذلك»
ثم قالت وهي تشير إلى معصمها وعنقها وتحت أذنيها:
«لقد استعملت عطرك ورائحته رائعة جداً»
ثم سمعا صوت سيارة أمام البيت.
فنظر هارفورد اليها، ولاحظت أنه شذب لحيته، ورفع يدها وقال:
«هل تسمحين لي؟»
ثم انحنى على عنقها وأخذ يستنشق عبير العطر فأخذت ماريتا تقارن بين رقته وحنانه وخشونة ابنه.
ثم فتح الباب. ولكن هارفورد لم يبال فقد لثم رقبتها بخفة.
وشعرت ماريتا بالاحراج. ثم أخذ الابن ينظر إليها بينما كان الأب يلمس رقبتها. فشعرت بنظراته اللافحة.
فهمست ماريتا قائلة في اضطراب:
«هارفورد»
فاستقام هارفورد والتفت الى ابنه.
فاتسعت عينا رايان دهشة ثم ضاقتا لما رأى ملابس والده التي لا يصدقها عقل.

ثم قال والده وهو يبتسم:

«هل تعجبك ملابسي الجديدة. أنفقت في سبيلها مالاً كثيراً»

فرد عليه ابنه قائلاً:

«إلى حد ما. السيدة لا تستمتع الآن وقد نقصت عشر سنوات من عمرك. فاستمر في حيلك حتى تجعلها تظن أنك أكبر منها بثماني عشر عاما وبانك في الثانية والاربعين بدلاً من الثانية والخمسين

«إنني أقدر تمنياتك لي بالرغم من التوائها»

فقالت ماريتا تلطف الجو:

«لقد أهداني والدك عطراً يا رايان، وهو رائع، ولم أحصل على مثله من قبل»

«إنني أشم رائحته. فهو يلوث الجو»

فدخلت السيدة فيسك الغرفة تعلن تقديم العشاء. وكان الحديث أثناء العشاء يدور بين ماريتا ومضيفها، ولم يتكلم رايان إلا بعد تقديم القهوة. فقد قال لماريتا:

«أرجعت الكاميرا التي تسببت في كسرها. فقد أصلحت»

وتحسس جيوبه وأخرج منها ورقة ألقاها نحو ماريتا وقال:

«هذه فاتورة الاصلاح»

فعبس والده وقال:

«ولماذا تعطيها إلى ماريتا؟»

«لأنها عندما كسرت الكاميرا قالت إنها سوف تدفع ثمن إصلاحها وأنا أطالبها بوعدها»

«ولكن لا يمكنك هذا العمل. فهي ضيفتنا، ولا بد أنه كان حادثاً عفوياً بالرغم منها»

«نعم ولكني حذرتها بأن الاصلاح يتكلف كثيراً فأصرت على ذلك. ولذلك قدمت لها الفاتورة»

ولما أخذت ماريتا الفاتورة لم تخف دهشتها للثمن المطلوب. ثم قال لها رايان:

«لقد حذرتك، فهل تنقضي وعدك؟»

فملأ وجهها الخجل وقالت بمهانة:

«سوف أدفع طالما أعطيتني الوقت لذلك»

فخطف هارفورد الورقة من يدها وقال:

«إنك لا تنتظر منها أن تجد كل هذا المبلغ ولن أسمح لها بدفعه. بل سأقوم أنا بدفعه وإني مشمئز من تصرفك لأنك سببت لها الأحراج»

ثم وقع شيكا وقال:

«اعتبر الأمر منتهيا»

فأخذ رايان الشيك ومزقه ثم ألقاه نحو ماريتا وخرج من الغرفة ولم يعتذر هارفورد لما بدا من ابنه.

وبعد برهة سمعت ماريتا هارفورد يقول:

«إذا كان الجو معتدلاً غداً، سأذهب إلى بيركلاند وهي تحدنا من الجنوب. وهي منطقة جرداء مفتوحة والباقي غابات زرعت أشجارها من مدة قصيرة. وأريد أن أقصدها لتسجيل أغاني الطيور فهي غنية بحياة الطيور منذ زمن طويل منيت نفسي بالذهاب اليها مع جهاز تسجيل. فهل تأتين معي لأريك المنطقة؟»

وشعرت ماريتا أنها لا بد أن تغتنم هذه الفرصة لرؤية الريف، مهما قال في ذلك ابنه. ولما قالت إنها موافقة سر لذلك ولثم وجنتها قائلاً:

«لا بد أن أقوم ببعض أعمالي ففي انتظاري رزمة رسائل للجامعة لا بد من الرد عليها وسأرجع لتوي»

وتبعته ماريتا إلى البهو ولما أوصد باب المكتب وراءه، نظرت إلى شعار العائلة المعلق فوق المدفأة وترجمت الأصل اللاتيني في ذهنها وتذكرت المعنى الذي ينطوي عليه.

دخلت غرفة الجلوس. ولكن الغرفة لم تكن خالية بل وجدت رايان فيها. وقف قائلاً:

«لا تهربي. لن أمزقك كما مزقت الشيك ولو أني أود ذلك. اجلسي»

وأشار إلى أحد المقاعد. ثم أخذ ينظر اليها.

«إنك تكسبين الكثير من عائلة تيودور. فالمنظار والكاميرا والعطر من أبي ثم هذا الشال الذي يطوقك مني.»

خلعت الشال وقذفته به وسمعته يقول:

«خذ الشال لا اريده.»

لكنها شعرت بالبرودة فودت أن تستعيده ثانية.

غير أنه التقط الشال ووضعه على أحد المقاعد وقال:

«لا فائدة منه لي الآن فلن أتمكن من إعطاء صديقتي أشياء مستعملة.»

زمّت ماريتا شفتيها وهي تحاول إخفاء غضبها. ثم قال لها:

«مازلت أتساءل عن السبب الذي يكمن وراء دعوة والدي لك فهو لم يتورط قبل ذلك في علاقات غرامية سرية. ولكن في هذه الأيام قد يبدأ الشخص في سن متأخرة.»

وحاولت ماريتا جاهدة أن تتلافى وقوعها في شرك الغضب.

وأردف يقول:

«أبي يعمل كل جهده ليبدو أصغر من سنه وكل ذلك لأجل فتاة تدعى ماريتا نيوبل. فهل باع نفسه للشيطان كما فعل فاوست لما أحب مارغريتا الحسناء؟ لذ اتخذ لنفسه شكلا جديداً وذلك بشراء ملابس جديدة ثم يتباهى بها كأحد طيوره المحبوبة وهو يستعرض ريشه لأغراء الأنثى.»

ثم وقف أمامها وقال:

«وهل تعرفين أن في بعض أنواع الطيور يستعرض الذكر أمام الأنثى وينفش ريشه ويفرد جناحيه.»

هبّت ماريتا واقفة وقالت:

«كف عن قسوتك على والدك. فهو رجل طيب وغير أناني.»

«هذه لعبة منك سمعتها من قبل وانت تقولين إنه لطيف، وحنون، وكريم. بل هو أبله ويعيش في الأوهام وقد فقد عقله.»

«بل أنت متحيز ضده لأنك تكرهه.»

ولكنه صاح يقول:

«إنني لا أكره والدي.»

ثم ردت عليه تقول:

«حسناً ولكنك متحيز ضده ـ لأن ـ لأن ـ لست أدري السبب ولكني ألاحظه في معاملاتك معه.»

«صدقيني إنني أعرف والدي تماماً وأعرف ما أقول.»

«ذلك لأنك قريب منه وأنا غريبة عنه فأراه كشخص منفصل عني.»

«وهل هذا صحيح، لا أظن. وذلك لأنك في عملك تعدين مجرد لا شيء إذا قورنت بهارفورد تيودور الرجل الذي يتبوأ القمة. ولا يخفى كيف تسمين العاطفة التي تشعرين بها نحوه في الحقيقة ليست إلا تقديس البطولة.»

فصاحت تقول:

«إنك تخطىء. إنك تخطىء جداً.»

«إذن أنت تقعين في حبه، في حب أبي وهو يصلح أن يكون أباً لك! وبحق السماء إنك محتاجة إلى أحد ليعيد لك عقلك.»

وأمسك بذراعها ولكنها نزعت نفسها منه وقالت:

«هل تفكر في درس آخر تلقيه علي؟ ذلك الدرس الذي هددتني به إذا لم أدع والدك لشأنه، لن أعطيك هذه الفرصة، ولن تقترب مني لتنال مأربك!»

ثم قال لها:

«لا تكوني واثقة من ذلك، يا فتاتي مع اني ابتعد عنك، فقد نفد صبري، ويمكنني أن أمسك وألطخ سمعتك وفي هذه الحالة سوف يشمئز أبي منك ولن يرغب فيك بعد ذلك.»

«إنك كريه ولا تحتمل.»

ثم قال لها:

«انت تعرفين أنني رجل بترول خشن فماذا تنتظرين مني؟»

وبذلك تغلب عليها ففرت من الغرفة هاربة.

٧ ـ المواجهة المرّة

رنّ جرس التليفون بينا كانت ماريتا ترتدي ثيابها. ولما نزلت للافطار رأت هارفورد جالساً في مقعده فقال لها:

«لسوء الحظ يا ماريتا جاءتني مكالمة هامة من وكيلي في الجامعة. ويبدو أن أحد كبار رجال التعليم في الحكومة أعلن أنه سوف يزور الكلية اليوم وبما أنه من كبار رجال الدولة لن يمكنني رفض طلبه».

ابتسمت وقالت وهي تداري خيبة أملها:

«لن أخرج معك اليوم إذاً ربما في وقت آخر».

ونظر هارفورد إلى النافذة فرأى السماء صافية فقال:

«الفرص مهيأة للتسجيل، ومن المؤسف أن تترك هذا المشروع. فإذا أقنعت رايان أن يقوم بهذا التسجيل لأجلي، هل تذهبين معه؟»

تخرج مع رايان؟ وبعد عراكها القوي ليلة أمس؟ ثم سألت هارفورد:

«متى يجب الذهاب؟»

«أنك في قدرته على قضاء كل الصباح هناك. فإذا وافق على الفكرة أظن أنه يختار بعد الظهر».

هزت كتفيها وقالت وهي تفكر: إذا كان رايان ذاهباً إلى هناك فلم لا تصحبه؟ على الأقل يمكنها رؤية الريف.

ثم قالت:

«سوف أذهب معه».

وتركها هارفورد كي يبلغ رايان بالفكرة.

ولما فرغت من طعامها رجع هارفورد وهو يقول وقد بدا عليه الاحراج:

«قبل رايان الذهاب. لكن يفضل الذهاب بمفرده. لكنه سوف يفكر في الأمر ويخبرك برأيه».

ثم تقدم هارفورد نحوها ووضع يده على شعرها وقال:

«آسف لتصرفه يا ماريتا».

وأخذ هارفورد خصلة من شعرها وراح يتأملها ويقول:

«إن لك سحراً، يا عزيزتي، فيمكنك التأثير عليه كي يصحبك معه».

ثم أدار وجهها إليه، وقال:

«يا فتاتي الجميلة، سأفتقدك اليوم، ولكنني سأهرع إليك في المساء لنتبادل أطراف الحديث».

ودخل رايان ثم خرج هارفورد وابتسم إلى ماريتا ورفع يده إليها مودعاً.

وانتظرت ماريتا أن تسمع موعظة من رايان ولكنه لم يفعل، بل أخذ مكانه الى المائدة ولم يتكلم إلا بعد أن ظهرت السيدة لينك حاملة الطعام فشكرها بلطف، ولما ذهبت ساد الصمت ثانية.

وأصبح الموقف لا يحتمل، وأرادت ماريتا معرفة رأيه فقالت له:

«رايان؟»

نظر إليها ببرود، ثم عاد يقرأ الجريدة. فهل قصد أن يجعلها معلقة لا يعطيها جواباً؟ وعادت تقول:

«رايان».

فرد وعيناه لا تفارقان الجريدة:

«نعم؟»

«أنت تعلم ما أردت أن أسألك عنه».

طوى الجريدة ووضعها جانباً وشبك يديه على المائدة وقال وهو يبتسم:

«أنا لا أعلم، فأخبريني».

كان يستمتع بلهفتها ويحاول أن يجعلها تستعطفه كي يصحبها.

«هل أنت ... هل نحن؟»

وانتظر أن تكمل كلامها، فداست على كرامتها وحاولت السؤال ثانية:

«هل أصحبك بعد الظهر في الذهاب إلى الريف؟»

«ولماذا تصحبيني؟»

قالت وقد نجح في أن يضعها في موضع الالحاح:

«أريد اغتنام الفرصة لأرى المنطقة قبل رحيلي».

«ولكن أمامك الحياة بطولها لتفعل ذلك».

ونظر إليها فرأى الحيرة والدهشة في عينيها. ثم قال:

«إذا كان الأمر قاصراً على رؤية الريف ففي إمكاني أن أقوم بدور الدليل ولكن يجب الذهاب هذا الصباح. فاستعدي على الفور وإلاّ تركتك وذهبت».

كان الجو دافئاً فارتدت ماريتا بنطلوناً خفيفاً وبلوزة رقيقة وقصيرة، فلما نظر إليها، ردت على نظرته بنظرة أقوى، ووضع رايان سلة الطعام في السيارة ثم قال هازئاً:

«الذكر عادة في دنيا الطيور يستعرض محاسنه وليس العكس، وفي كل حال فالذكر الذي ترغبين في جذبه ليس موجوداً الآن، انك تضيعين وقتك في ارتداء هذا الزي».

«لعلمك إنني لم أرتد زياً، فالجوّ حار والأصح أنني تعرّيته».

«إنك تدهشينني. فإذا تعرّيت أكثر من ذلك قد تثيرين رغبتي وعندئذ تجابهين اثنين من آل تيودور بدلاً من واحد. ولا بدّ من اختيار واحد منهما، فهل تختارين الأب الذي، بالرغم من تقدمه في السن ما زال يمتلك الحيوية التي تجعله يسعد أية امرأة كما أن رأسه في السماء، ومنزلته في دنيا التعليم عالية ومؤهلاته هائلة، كريم لا يهمه جمع المال. أما الابن فحيويته لا جدال حولها، ومؤهلاته توازي مؤهلات والده ووظيفته ذات مسؤولية، ولكن هناك ناحية فيه ذات خشونة وقسوة تجعل الفتاة البريئة الصغيرة تصعق من الخجل والاحراج».

ثم غيّر موضوع حديثه وأصبح جاداً. فسرد عليها تاريخ المنطقة التي

يسيرون فيها وقال:

«هذا هو شرق أنغليا. يحدها البحر من الشمال والشرق والمستنقعات من الغرب، أما من الجنوب فتحدها غابات من أشجار البلوط. وبعد ذلك تركا الطريق وانعطفا إلى مساحة منبسطة من الأرض على حافة أرض بور، ولم يجدا مخلوقاً آخر هناك غيرهما، فقال رايان وهو يغادر السيارة:

«هذه الجهة أقل المناطق سكاناً في البلاد كلها، واسمها بيركلاند وقد رأى الوافدون القدماء أنها صالحة للزراعة بسبب جفاف تربتها وجفاف مناخها».

ثم حمل رايان جهاز التسجيل المعلق على كتفه وحمل سلة الطعام في يده وسارا نحو الغابة صامتين. كان يبدو وكأنه يستاء لوجودها معه. وكانت تصرفاته مؤدبة ولكنها باردة.

ولما وصلا إلى قطعة خالية من الأشجار في الغابة، ألقى بسترته على الأرض وقال:

«اجلسي عليها واتركي لي مكاناً بجانبك».

وكانت السترة تسع اثنين ولكن لما جلسا تقاربت أكتافهما فودت ماريتا أن يكون مزاجه أكثر اعتدالاً. وكانت ذراعه تلمس ذراعها فتجعلها تشعر بالوخز لأن هذا التلامس يجعلها تحس بالتجاوب معه.

ثم راح يعد الجهاز للعمل. ورفع رأسه وقال وهو ينتصت:

«هذا هو البلبل».

فاستمعت للصوت الرخيم وقالت:

«هل يغني البلبل أثناء النهار؟»

«نعم كثيراً ما يغني أثناء النهار، ولن أسجل صوته فلا بد أن والدي قد فعل ذلك من زمن مضى».

ثم استمع ثانية وقال:

«سأسجل صوت هذا الطائر. أحياناً يغني وهو يحوم وغالباً عند طيرانه. ولولا انشغالي بالتسجيل كنت أشرت أليه حتى تتعرفي عليه فهو أزرق يميل إلى اللون الرمادي وهو لون الذكر أثناء الصيف».

«كيف أتتك كل هذه المعرفة عن الطيور؟»

«إني أهتم بها. فالكثير من معرفة أبي انتقل إليّ في غفلة منه».

«وإذا كانت هذه هواية متبادلة فلم لا تقرّب بينكما بدلاً من التنافر كل الوقت؟»

وكان هذا سؤالاً لاحق لها في طرحه فانها تثير به القلاقل.

فرد بسرعة قائلاً:

«لا شأن لك بالطريقة التي أتعامل بها مع والدي. فأنت لست فرداً من الأسرة بعد، وإذا كان الأمر بيدي فلن يحدث ذلك».

وأشار إلى عصفور العرف الذهبي فحاولت ماريتا أن تراه ولكنها فشلت فقال بتهكم:

«أرى أنه ليست لديك القدرة على مراقبة الطيور. وهذا ما يهدّ الأحلام التي بناها والدي حولك».

«إنه لا يدري ذلك فأنا أتظاهر أمامه بالمعرفة».

تضحك وقال:

«وهل تظنين يمكنك خداعه. إنه خبير. والخبراء دائماً يميزون الذين يقولون الصدق».

فملأ وجهها الخجل حين فكرت في المرات التي خدعت هارفورد فيها.

ثم قالت:

«يمكنني أن أميّز الأنواع المختلفة من الطيور في الصوّر. ولكني أتعثر عند رؤيتها في أماكنها الطبيعية، فإنها تتحرك بسرعة فائقة وأجد صعوبة في العثور عليها بالنظر».

فضحك عالياً ثم هزّ كتفيه استخفافاً وقال:

«هذه مشكلتك ولكني لا أعرف أي سحر يمكنني أن أساعدك به. وإذا عرفت فلن أبوح لك. فأنت تورطت مع أبي في هواية الطيور ولأي غرض؟ لا أدري. ولكن يمكنني أن أخمّن شيئاً».

«هل يجب أن تكون قاسياً دائماً؟ لم لا تكون لطيفاً معي؟ إنه يوم جميل وهو يعد إجازة لي».

وإذا كانت تظن أن هذه الكلمات الشاكية يمكنها أن تهزه فهي واهمة فقد أمرها بالسكوت وأدار جهاز التسجيل.

نظرت حولها في حيرة فتساءلت عمّا لفت نظره من الطيور أو سمع من غناء. ثم رأت طيراً يغوص في الفضاء يلف ويدور فارداً ذيله وريشه بني منقوش، يميّزه منقاره الطويل المستقيم الذي يحفر به الأرض.

وسألها رايان:

«هل رأيت الطير؟»

فهزت له رأسها بالايجاب وقالت:

«شكراً لك. سأتذكره دائماً بمنقاره المميّز».

«اذن سوف تتباهين بما أضفته إلى معلوماتك. ومما لا شك فيه أن أبي سوف يكافئك بهدية أخرى».

ثم التفت إليها وقال بتهكم:

«ربما كانت سيارة هذه المرة !»

فسألته قائلة:

«وإذا فعل وقبلت هديته فماذا تفعل؟ هل تعاقبني كما عاقبتني من قبل. وتعطيني درساً آخر إذا لم أدع والدك وشأنه؟»

أزاح جهاز التسجيل بكل حرص واستدار إليها ففزعت لما رأت في عينيه من صلابة وبرودة، ثم همس يقول:

«هل تتحدينني؟ وهل تطلبين مني أن أبرّ بوعدي؟ هذا ما توقعته، فإني على استعداد أن أقبل هذا التحدي، لأنني واسع التجربة في عالم الاناث فأعرف معنى التشجيع عندما أراه».

وبحركة سريعة ألقاها أرضاً، ثم استدار ورقد بجانبها ووضع يده على وسطها.

حاولت التخلص منه، ولكنه كان غافلاً عنها يحاول أن يملي إرادته عليها ويجبرها على الخضوع حتى إذا طلبت الرحمة فلن يرأف بها. فشعرت أن قوة مقاومتها تنحسر ويحلّ محلها تجاوب عميق له. وكانت كل حركة تقوم بها تلقائية

وغريزية. وشعرت أنها في دنيا غريبة بين الحقيقة والخيال. الخيال يبين لها أن الرجل يكن لها الحب أما الحقيقة فتدل على أنه ينتقم من والده ومنها فراح يؤلها.

ونجح في أن يعزز في قلبها الشوق إليه.

ثم رآها تبكي فقال لها:

«كفي عن البكاء».

ولم ينطق بكلمة اعتذار أو طلب العفو منها، ولم تنتظر منه ذلك لأن له قلب من حجر، ثم جلست وأزاحت شعرها عن وجهها ومسحت دموعها، ورأته يفتح سلة الطعام التي جهزتها السيدة فيسك ثم سمعها تقول:

«إني آسفة، لا يمكنني أن أقرب الطعام».

هز كتفيه واستمرّ في إفراغ سلة الطعام، فرأت أن السيدة فيسك جهزت لها السلطة في أطباق من الورق المقوى ووجد رايان لنفسه شوكة فأخذها وراح يأكل. وبعد برهة شعرت بالجوع وبفراغ معدتها وشجعتها رائحة طعام رايان فتناولت السلة بحثاً عن طعامها وأخذت تأكل منه.

ثم سألها:

«هل تشعرين بتحسن؟»

تخفق قلبها لهذا التغيّر السريع في مزاجه وهزت رأسها ثم سألته:

«هل فرغت من التسجيل؟»

«نعم قمت بواجبي ويمكنني أن أرتاح».

ثم رقد بجانبها، فتأثرت حواسها لقربه، وتجاوب قلبها معه، فساقاه الطويلتان القويتان وعضلات ذراعيه وصدره العاري، كل هذه الأشياء ذكرتها بعناقه القوي. وكان في إمكانه أن يجعلها تخضع له كلية. لكنها شكرت ربها لأنه تركها في الوقت المناسب لأنها كانت ضعيفة تجاهه ومسلوبة الارادة.

وفجأة جلس والتقط أحد الأحجار وأخذ يتفحصه وسمعها تقول:

«هل هو ذو أهمية؟»

«ليست أهمية كبيرة».

ثم تناول حجراً آخر وقال:

«هذا من حجر الصوان. ويكثر في هذه المنطقة».

ثم قال لها:

«جعلت مني مدرساً لهذه المادة وهو ما أقسمت ألا أفعله، فأنا لا أطبق النظريات، بل أفضل أن أطبق العمل على نظرياتي».

يبدو أن هناك معنى مستتراً وراء هذا القول. فإن حديث رايان ينطوي دائماً على معاني مستترة ولكنها كفت عن محاولة حلها. ثم قالت له:

«استمرّ من فضلك، فالجيولوجيا تبهرني دائماً من زاوية الهواية فقط».

«أعتقد أنني جعلتك تهتمين بأنواع الصخور أكثر من اهتمام أبي بطيوره».

احمرّ وجهها خجلاً فضحك لاحراجها.

«والآن ماذا أقول لك؟ كانت هناك كمية من الصخور المكسورة قطعاً بقيت بعد ذوبان ثلج العصر الجليدي، ومعظمها كانت صخوراً محلية ولكن بعض الصخور جاءت من أرسلو عاصمة النروج واكتشفت على ساحل شرق انغليا، وسوف أعيرك كتباً في هذا الموضوع حتى يمكنك أن تعرفي شيئاً عنها».

فقالت:

«على الأقل عندما ألتقط أحد الصخور لدراسته أكون متأكدة أنه لن يطير قبل أن أتمكن من ذلك!»

أطلق ضحكة عالية ثم وقف ومدّ إليها يده وقال:

«تعالي آخذك إلى الماضي السحيق».

ثم جذبها فقامت وأخذت تنظف ملابسها فأخذ ذقنها في يده ونظر في ملامحها وقال:

«هل جفت الدموع؟»

هزت رأسها بالايجاب. ثم قال:

«حسناً. سآخذك الآن إلى مكان يسمى غريز غريفز».

وسارا في الطريق الذي يوصلهما إلى السيارة. وكان رايان ينحني من وقت الى آخر ليلتقط صخوراً من حجر الصوان، ولما وصلا إلى هناك بعد فترة قصيرة، اخبرها رايان ان هذه الجهة مكونة من حجر الصوان. ومرّا بأكواخ وكنائس بنيت

كلها من هذه الحجارة.

ثم تركا السيارة وسارا في طريق واضح المعالم وقال لها رايان: «إن رجال الحفريات اكتشفوا عام ١٨٧٠ أن الحفر الموجودة بكثرة في هذه المنطقة هي أفواه لمناجم حجر الصوان الموجودة على عمق أربعين قدماً. وقد انهار سقف أحد هذه المناجم فوجدوا المعاول ما زالت هناك بعد أن تركها رجال المناجم من آلاف السنين ويمكن استعمالها الآن.

ثم أمسك رايان يدها بشدة فنظرت مارينا إليه وهي ترتجف واستطرد:

«ووجدت قرون الوعل الأحمر في كل المناجم، وهذا يعني أن إنسان ما قبل التاريخ استعملها كمعاول لاستخراج حجر الصوان، وظل أحد المناجم مفتوحاً للجمهور. فهل عندك الشجاعة لكي تنزلي فيه؟ إني أرى أنه جدير بالزيارة».

وكان الغطاء المستدير للمنجم قد نزع، ونظر إلى داخله فوجدا سلماً معدنياً يصل رأساً إلى أرض المنجم فقال لها رايان:

«سأنزل أولاً. ولكن يبدو عليك أنك محتاجة إلى تشجيع».

ونزل إلى المنجم ماسكاً طرفي السلم، وأشار لمارينا بالنزول. وكان المنجم مظلماً ولكنها تغلبت على مخاوفها واستدارت ونزلت، وأخذا ينظران إلى المنظر الرائع.

وطوقت يدا رايان وسط مارينا فارتكزت عليه. ولم تأبه لتأويله لهذه الخطوة التي اعتبرتها نوعاً من الخضوع الصامت.

وأمكنه بكل مهارة، أن يبني عندها حاسة كبيرة كحماسه، وأيقنت أنها لن تقيم، بعد ذلك، حواجز تفصلها عنه. فقد اكتشف المفتاح الذي يصل به إلى عواطفها فيمكنه أن يديره فتفتح له الأبواب ويمكنه أن يفعل ما يشاء.

وسمعا أصوات أطفال تصل إليهما من فوق المنجم، ووقع أقدامهم تدق السطح فابتعدا، ثم رأيا وجوه الأطفال تطلّ عليهما من قمة المنجم فقال رايان:

«لقد أغاروا علينا. ويحسن أن أتقدمك في الصعود قبل أن يأتوا فيفسدوا جنتنا».

قبل انتهاء السلم رأت رايان ينتظرها فاتحاً ذراعيه لها، ولكن قدمها زلت فجاهدت حتى استعادت توازنها، وقبضت على جانبي السلم ثانية، وشعرت بالألم

ينبض في ساقها. وأخيراً ساعدها رايان لتصل إليه. ثم جثا ليرى ساق مارينا ويمسح الجرح بمنديله وهو يقول:

«للأسف، فالسيارة بعيدة».

«سوف يمكنني الذهاب إليها بسهولة. فليس الألم كبيراً».

ولكن بعد برهة، وبالرغم من التفاف ذراعه حول وسطها أخذت تعرج، وفجأة، وبدون أي كلمة، مال عليها وحملها بين ذراعيه إلى السيارة. ولما اقتربا من المنزل قال لها:

«سأسافر صباح الغد إلى لندن في رحلة سريعة، وعند رجوعي في المساء هل تتناولين العشاء معي؟ ما هو ردك يا حلوة؟»

كلمة التدليل جعلت قلبها يسرع. فهمست تقول:

«إذا أردت ذلك».

«نعم أريد ذلك. أريد عينين رماديتين تنظران إلى عينيّ في ضوء الشموع وحاجبين مقوسين يتحدياني وشفتين كاملتي التكوين يغرياني... هل يكفي هذا الشعور كي تعرفي كم أريدك؟»

ملأ وجهها الخجل للمعاني المختفية وراء قوله... إن الحب لا يبدو جزءاً من حياة هذا الرجل فهو لا يحتاج إليه ويسخر منه. فمن الجنون أن تترك نفسها تقع في شركه. ولكنها وقعت بالفعل ولا يمكنها التراجع.

وعندما وصلا إلى المنزل حملها من السيارة، فقالت له:

«أنزلني يا رايان. لئلا يرانا احد. أنا قادرة على المشي فوالدك...»

ولكنه صمم على حملها وابتسم لها بحنان وقال لها وهو يقترب من الباب:

«هل هذا وعد منك؟ بأننا سوف نتناول العشاء معاً مساء الغد».

هزت رأسها موافقة. ثم دخلا البهو فاستقبلهما هارفورد غاضباً ولكنه لم يتكلم ثم رأى ساقها الجريحة فبان عليه الاهتمام وقال:

«ماذا حدث يا رايان؟ وكيف تركتها تؤذي ساقها؟ طلبت منك بعض التسجيلات وليس أن تذهبا الى مكان خطر! انزلها لأرى بنفسي».

«اخذتها إلى غريمز غريفز فهل تسمي ذلك خطراً؟ لقد زلت قدمها عن السلم».

قالت مارينا وهي تتململ بين ذراعي رايان:

«إنه أمر بسيط يا هارفورد. سأغسل الجرح وأضمده».

«لا إني أصرّ على دعوة السيدة فيسك لتساعدك. خذها إلى الدور الأعلى يا رايان إلاّ إذا فضلت أن أحملك بنفسي يا عزيزتي».

«تحملها أنت يا أبي!»

وحرص رايان أن يجعل أباه يدرك تقدمه في السن والخطورة التي تنجم عن حمله لماريتا والمشي بها، فما بالك بصعود السلم بها.

ووضع رايان ماريتا على السرير وخلع لها حذاءها، فلم تنهره بل استعذبت لمسه لها ولم تحاول أن تداري شعورها.

ومال عليها ثم قال هامساً:

«إذا طلبت منك أن تفسحي لي لأرقد بجانبك هل ترفضين كما رفضت من قبل عندما رقدت في سريري ودعوتك أن ترقدي بجانبي؟»

وسمعا صوت السيدة فيسك بالباب تقول:

«آنسة نيويل».

فاستقام رايان وهمس:

«سوف أعيد عليك هذا السؤال في وقت يسمح بذلك».

وغادر الغرفة.

كان الحديث أثناء العشاء ينصب على اشتراك الأب وابنه في المناقشة عن تسجيل غناء الطيور وكانت معرفة رايان عن حياة الطيور توازي معرفة والده بها. ولما فرغ العشاء تركهما رايان بعد أن ابتسم لماريتا وردت ابتسامته بدون تحفظ.

ثم أخذت تسأل هارفورد عن يومه في الجامعة، فرد يقول:

«لم نحرز نجاحاً كبيراً فالمناقشات كانت عن المال، وعن القدر القليل الذي سمحوا لنا به بدلاً من المبلغ الكافي الذي طلبناه».

ثم كف عن الكلام في هذا الموضوع ونظر الى وجهها بحنان وقال:

«إنني سعيد لأنك مرتدية ثوباً أصفر كالشمس وهو يناسبك دائماً».

ودهشت لذلك، فهذه هي المرة الأولى التي ترتدي فيه ثوباً أصفر ولم يرها أبداً

مرتدية ذلك اللون.

ثم قال لها:

«تعالي معي إلى الحديقة يا ماريتا للنزهة».

ثم أمسك بيدها وسارا فوق العشب الأخضر الذي كساه الندى ورآهما البستاني ما زال يعمل بإخلاص.

وفي حديقة الورود العبقة برائحة الزهور والمشرقة بألوانها طلب هارفورد يد ماريتا قائلاً:

«يشرفني أن تكوني زوجة لي يا عزيزتي. هل تتزوجينني حتى تكوني بجانبي دائماً عندما أحتاج لك؟ سأعطيك كل شيء... منزلاً جميلاً وأشياء قيمة وفوق ذلك... حبي!»

استعادت هذه اللحظات وهي في غرفتها تنظر إلى السماء التي زينتها النجوم، فشعرت بألم غريب. وكانت قد أرجأت الرد قائلة له:

«أعطني وقتاً، فنحن لا نعرف عن بعضنا البعض إلا القليل!»

وتمنت أن يكون الابن هو الذي يعلن عن حبه لها، ويطلب منها أن تكون بجانبه طول حياته.

وكان هارفورد قد رد عليها يقول:

«أنا أعرف عنك أكثر مما تظنين. الطريقة التي تبتسمين بها وتعبسين بها، وإذا أغضبك شيء، أو الطريقة التي تشاركك بها في كل شيء، وتضحك لذلك، والطريقة التي سوف تقفين بها بجانبي لتكوني عروساً لي. إني أراك في أحلامي. وأعيش معك خلالها... وراء الأحلام... تكمن الحقيقة... رنت هذه الكلمات في ذهنها ولكن لم يمكنها تفسير معناها.

وقبل هارفورد أن يعطيها وقتاً تفكر فيه، وكان متأكداً أنه سوف يجعلها تشعر بحنانه... لا يهم فارق السن بينهما ما زال قوياً. وسوف يعيشان سنين طويلة وينجبان أطفالاً.

شعرت بالشفقة نحوه، فهو رجل طيب وتمنت لو لم يكن له ابن أحبته بقوة... ولم تكن تعرف أن في مقدورها أن تحب بهذه القوة.

ثم أخذت تفكر في كل ما قاله رايان حول عدم الاكتراث للحب فقد أقسم أن هذا هو دستور حياته. وأنه لا يحسن معاملة النساء. وحاولت أن تكرهه بدون فائدة.. لم تنكر الحب الذي تشعر به نحوه. فهو موجود وسوف يستمرّ ولن يخبو أبداً.

استيقظت ماريتا في اليوم التالي لتراه جالساً بجوارها. فظنت أنها تحلم ولكنه ابتسم لها. وأرادت أن تخبره عن طلب والده يدها. لكنها فكرت... إن هذه الدقائق الغالية لا يجب إفسادها فهي لن تتزوج الأب بينما تحب الابن. وسمعته يقول:

«إننا على موعد هذه الليلة. كوني جاهزة عند رجوعي وسأعمل على وصولي مسرعاً».

«خذ حذرك».

وبدا اليوم طويلاً. ففي الصباح اعتذر هارفورد لتركها بمفردها وراح يعمل فتسللت ماريتا إلى غرفة رايان لأنها تأكدت أنه لن يرجع فجأة. وأخذت تفحص المذكرات فرأتها مكتوبة بعناية بالغة، وأسلوبها سلس، وقارنتها بأوراق والده التي كانت تجدها في العمل. فوجدت أن تسلسل أفكارهما واحد. فأسفت لذلك الخلاف الذي كان يفصلهما.

وبعد الظهر عند وجودها مع هارفورد في المخبأ جنباً إلى جنب كان عطوفاً متفاهماً... وكانت مشكلة التصوير، كما قال لها، هي أن تكون قريبة من الطيور ولكن ليس بالقرب الذي يجعلها تفزع. وتوجد طريقة أخرى هي استعمال عدسة مقربة وهي غالية الثمن ولكن عندما تصبح ماريتا أكثر تدريباً، سوف يشتري لها واحدة مثل عدسته.

واختارت لحظة لتخبره فيها عندما صوّر طيراً. وكان سعيداً لأنه صوّره وهو في وضع فريد أثناء طيرانه.

كان مشغولاً بإعداد الكاميرا للصورة التالية عندما قالت له:

«أرجو ألا تستاء يا هارفورد لأني سوف أتناول العشاء هذه الليلة في الخارج، فقد دعاني رايان للعشاء».

ثم التفتت إليه ورأت تعبيرات وجهه الجامدة:

«وهل تظنين أنه من العقل أن تقبلي هذه الدعوة؟»

«من العقل!»

«لقد حذرتك من ابني يا ماريتا لاستهتاره في معاملة النساء».

«ولكنه دعاني لتناول العشاء فقط وأتمنى ألا تستاء لذلك».

«إنه ولدي وإني أثق فيه... في بعض الأشياء فقط».

«أنا أسفة».

ولكنه لم يرد، فعرفت ماريتا أنه لم يتقبل الاعتذار.

كانت ماريتا جاهزة عند رجوع رايان وعرفت أنه رجع مسرعاً ليحافظ على موعده معها، فهل تستمد الأمل من هذه الشواهد؟ ولكن أي أمل؟ هل هو الأمل في أنه سوف يبادلها عواطفها؟ وهل هي عزيزة إلى هذا الحد؟ كفاها كل هذه التحذيرات من والده... بل ومن رايان نفسه... فلا قيمة للزواج أو الأطفال في مستقبله لا روابط من الأطفال والبيت. ولا عوائق أمام حريته.

ارتدت ثوباً أحمر نارياً يكشف عنقها الأبيض ويحدد خصرها النحيل ولا يخفي ردفيها الممتلئين ودثرت كتفيها بالشال الذي أهداه لها رايان...

ظهر الإعجاب في عيني رايان وقال لها:

«تبدين جذابة ورقيقة. وهما صفتان بالغتا الخطورة إذا اجتمعتا معاً فأنا لا أقاوم الأولى أما الثانية فأعتبرها منذ صباي تحدياً يجعلني أود البطش بها. فحذار يا ماريتا».

تناولا العشاء في مطعم محلي، رأت على جدرانه صوراً قديمة... وكان عبق الماضي يمتزج مع الحاضر. وكان رايان يرتدي سترة بنية وقميصاً فاتحاً ويلمع شعره في الضوء الخافت. فظهر كأنه لورد هذا القصر وماريتا سيدته.

ثم رجعت إلى الواقع ورايان يسألها:

«هل تحلمين بالمستقبل؟»

المستقبل! إنها بالرغم من أن هارفورد طلب الزواج منها تجهل مصيرها. فردت تقول:

«لا. إني أفكر في الماضي وأقص على نفسي قصة من مائتي سنة مضت».

«لا يمكن أن أجاريك في الماضي، لأني رجل عصري، فأنا صورة مصغرة لانسان هذا العصر، في تصرفاته».

«وأخلاقياته؟».

«وأخلاقياته...».

ماتت الابتسامة على شفتيها واستطردت تقول:

«إنك جيولوجي، ومع ذلك تساير هذا العصر. وهذا تعارض لا يمكن الجمع بينهما».

«أنا أرجع إلى الوراء، في عملي، مئات بل آلاف الملايين من السنين وفي راحتي أبقى في الحاضر وأتمتع بكل دقيقة منه».

ونظر إليها ثم عاد فقال:

«بل كل ثانية منه».

وتكلما بهدوء، وكان لطف رايان قد أحاله إلى إنسان لم تعرفه من قبل فأين ذهب بروده وأين اختفت قسوته؟ ثم قال:

«لا بد أن أريك هذه المنطقة. هل شاهدت نورفولك؟ نحن نمتلك زورقاً هناك وبه محرك وغرفتان، وإمكانيات لطهو الطعام وحمام صغير وكل ما يحتاج إليه المرء».

«وهل تقضي إجازتك هناك؟».

«أحياناً أمضي هناك بضعة أيام. ولا أذهب مع والدي أبداً. إن أبي يستخدمه في نشاطه لمراقبة الطيور والمنطقة تسعده بذلك. أما أنا فأقصد المكان لأبعد عن كل شيء. وسوف أصحبك مرة تريه».

وسألت نفسها متى؟ لا أمل لها في شيء، فأيامها في مبنى الأفق معدودة. قريباً سوف يطلب منها هارفورد رداً على طلبه الزواج منها وسوف ترد بالرفض ولذلك يجب أن تغادر البيت. وهذا معناه ألا ترى رايان ثانية.

وحاولت أن تجد الشجاعة لتخبره بطلب هارفورد أن تكون زوجة له، ولكن الكلمات كانت تتحشرج في حلقها.

وبعد تناول القهوة قال لها رايان:

«المطعم له حديقة خلفية مليئة بالورود والأشجار. تعالي معي لنراها في ضوء القمر».

وبحا في الحديقة نافورة فسارا حولها وأحكمت ماريتا الشال حول صدرها لتتفادى رذاذ النافورة على جلدها.

وجدت في الخميلة مقعداً خشبياً وكأنه صنع للمحبين. فقادها رايان إليه ولما نظرت صوبه وجدت ضوء القمر قد أحاله إلى هيئة الأشباح، وكأنه أصبح جزءاً من الماضي لا يمكن بلوغه... لقد أصبح شفافاً... نظر إلى وجهها وابتسم فردت ابتسامته... إن الشبح لا يدفء قلبها بهذا القدر. فالرجل له جسم قوي وعضلاته حديدية تشعر بها تحت سترته.

ثم التفت إليها وجذبها فرقدت بجانبه ومد لها ذراعه لتسند رأسها عليه، وأخذ يتحسسها بيده الأخرى، وعندما مانعت ماريتا عانقها حتى لا يسمع احتجاجها... لا فائدة من مقاومته ولا قوة لها على ذلك!

ثم جذب طرفي الشال عن عنقها وأخذ يهمس:

«قولي إنك تحبينني. اعترفي بأنك وقعت في حبي وإلا...».

وأخذ يجذب الشال حتى إنها شعرت بالخوف، ولكنه خوف استعذبته وكانت تحت رحمته ومع ذلك تجاوبت مع النشوة التي أثارها فيها.

«إني أحبك يا رايان أحبك».

ورأت في عينيه بريق الانتصار. لقد فاز ولكن ما هو هذا الانتصار؟

ولما عادا كان هارفورد في البهو وكانت أيديهما متشابكة عندما وقفا أمامه وفكرت ماريتا. لو رجع التاريخ قرنين إلى الوراء، فحتماً كان أحدهما سيلقي بقفازه تحدياً للمبارزة، ولكن الرجلين كانا أباً وابنه فشعرت بالخوف لهذا الخاطر الذي يلوحها إلى المبارزة حتى الموت...

ثم عادت إلى الحاضر وعرفت أن هذه المواجهة جعلت الجو يتكهرب بينهما فلا بد أن تهرب.

التفتت إلى رايان وقالت:

«شكراً يا رايان لهذا العشاء الرائع ولكل شيء... ذهبنا إلى مكان رائع يا

هارفورد».

ابتسم لها، فتساءلت عما رآه في خديها الملتهبين، ثم قالت لرايان الذي كان ما زال ممسكاً بيدها:

«لا بد أن أصعد إلى غرفتي يا رايان».

ثم وجدته يأخذ يدها ويطبع قبلة على معصمها، ولكنها لاحظت أنه يمثل هذا الفصل ولكن عندما نظر إليها رأت الدفء في عينيه.

ولما وصلت إلى غرفتها نظرت من النافذة وتساءلت ماذا يحدث في غرفة الاستقبال؟ ولماذا لم تجد الشجاعة لتخبر رايان بطلب والده لها؟ هل يخبره والده الآن؟ وبعد مطارحتها الحب في حديقة المطعم ماذا يظن رايان بها بعد أن يعرف أن والده يريد الزواج منها؟

وأخذت تتجول في غرفتها بقلق، ثم مشطت شعرها وجددت زينتها وعقدت الشال على كتفيها وكأنها شيء، أرادت أن يحميها، ثم نزلت إليهما. وقبل أن تصل إلى نهاية السلم سمعت العراك القوي، فشحب وجهها وضعفت ساقاها فأمسكت بسياج السلم لتتمكن من النزول.

كان صوتهما عالياً يمكنها من سماع كل كلمة منه:

«طلبت الزواج منها فطلبت مهلة تفكّر فيها لكنها لم ترفض».

ثم انخفض صوت هارفورد إلى الهمس ثم ارتفع ثانية.

«فعلت ذلك متعمداً فجعلتها تقع في حبك لتتحداني وتتفوق عليّ... استخدمت لطفك وكل سلاح لديك ولك أسلحة كثيرة كثيرة جداً لتنتزعها مني وتتركني أعزل... هذه خسة ونذالة».

فرد الابن بصوت قاس:

«إنك على حق. ولن أنكر شيئاً وأعترف أني فعلت ذلك عن عمد، فقد عملت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني. فكنت أرى ما يعتريك من مشاعر ولاحظت ذلك من أول الأمر، وكان عليّ أن أتلافى الكارثة التي سوف تقع حتماً إذا تزوجتها، فأنت في دنيا الأحلام... دنياك وحدك... وكان عليّ أن أجعلك ترجع إلى عقلك وتراها كما هي لا كما تريد أن تراها، وأجعلك ترى غرابة تفكيرك وتفطن إلى

المصيبة التي سوف تواجهها إذا استمرّ طيشك. وقد نجحت في مسعاي. فالليلة باحت لي بحبها وذلك بالقول والفعل. وقد انتصرت بينما ذقت الهزيمة يا أبي. ولا شيء يمكنه تغيير الموقف فامتثل للحقيقة وعش في وحدتك بسلام وتعقل».

«لا!»

ثم التفتا إلى الباب وكأن شبحاً قد دخل عليهما... فوجه ماريتا كان شاحباً، وشعرت بأنها ماتت ثم بعثت كي تتعذب، ولو أن العذاب كان قدرها وكانت كلمات رايان تطوف برأسها وترن فيه كأنها في كهف... «لقد فعلت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني وإني أعترف أني فعلت ذلك عن عمد.. الليلة بالقول والفعل واعترفت أنها قد أحبتني...»

قال لها هارفورد وهو يقترب منها:

«ماريتا!»

فردت هامسة مثل النسيم:

«هارفورد، هل ما زلت تريد الزواج بي؟»

فشحب وجهه وبدا عليه الفرح وقال:

«نعم يا عزيزتي».

ولكن رايان قال:

«قلت إنك تحبينني لقد اعترفت لي بذلك عندما تحدثنا».

«نعم إني أعترف بذلك، ولكن كان هذا تحت التهديد والاكراه».

لا أحد يدري كم تكبدت من ألم وهي ترد عليه، ثم جمعت طرفي الشال حول عنقها كما فعل في الحديقة وقالت له:

«هل تذكر هذا الشال؟»

وأدارت وجهها، فقد وجدت في وجهه الازدراء والكره وقالت لنفسها بيأس: نعم، الكره.

ثم أضافت:

«هارفورد هل ما زلت تريدني زوجة لك؟»

«يا فتاتي الحلوة. هل تدركين ما تقولين؟ إنك شاحبة...»

«سوف أتزوجك يا هارفورد».

وكان صوتها عديم النبرات وعيناها مفتوحتين وكأنها تمشي وهي نائمة.

أخذها بين ذراعيه في حنان وتقديس وكأنها شيء ثمين قابل للكسر. ماذا قال رايان عن ذلك منذ ساعات... بل منذ سنين مضت! فهي تثيره وتجعله يهشم كل شيء يراه رقيقاً قابلاً للكسر. وقد حطمها ورفس الحطام بقدمه.

وبينما كان هارفورد يعانقها انحسر الشال عن كتفيها وسقط.

اجتاز رايان الغرفة والتقطه ووضعه في جيبه ورأت ماريتا ما فعل بشالها وهو الهدية الوحيدة التي تلقتها منه! لن يكون لها بعد ذلك شيء تذكره!

وكانت النظرة التي ألقاها عليها قد جعلتها تجفل وتغمض عينيها ثم تابلت ولكن يدا هارفورد أمسكتا بها. وسمعت قدمي رايان تتجهان نحو الباب الذي أوصده بشدة وراءه.

٨ ـ قلب من حجر

في اليوم التالي اشترى هارفورد لماريتا خاتم الزواج المصنوع من الماس والزمرد. وأمضيا فترة بعد الظهر في المخبأ. أما المساء فقد قضياه في سماع الموسيقى. وقالت لنفسها: هكذا سيكون أسلوب حياتها من الآن ويجب أن تتعود على ذلك. ولكنه سيكون صعباً عليها... فهي فتاة هادئة الطبع.

وأصر هارفورد أن تكتب إلى المسؤولين في التعليم وتبلغهم باستقالتها. ولم يريا رايان طوال اليوم. لكن ماريتا عرفت أنه لم يغادر المنزل اذ سمعته يحادث الشرفة على المطبخ. وقال لها هارفورد إنه دعي لالقاء محاضرة في مؤتمر لمراقبة الطيور في أواخر الأسبوع... وأضاف وهو يقبل خدها:

«هذا معناه أني سأتغيب لمدة يومين».

ولكن المشكلة حلت بسهولة، فقد تلقت مكالمة هاتفية من والدتها تقول إنها سوف تحضر. ووجدت ماريتا هذه الفرصة لتخبر والدتها بخطبتها لهارفورد. فقالت لها:

«إن لدي أخباراً. لقد خطبت، وسوف أتزوج يا والدتي».

«ومن هو ذلك الرجل السعيد يا حبيبتي؟ هل هو ابن البروفسور تيودور؟».

حبست ماريتا أنفاسها حتى تتمكن من الكلام:

«لا لا. طبعاً لا... فهو ذلك الصنف الذي لا يتزوج أبداً. إنه هارفورد نفسه».

وهنا سمعت صوتاً من الناحية الأخرى من الخط ثم أضافت:

«طلب الزواج مني ووافقت. هل أنت مسرورة لذلك؟».

«ولكن يا ماريتا إنه يكبرك بسنوات كثيرة. هل تتصرفين بحكمة؟»

وقد أغاظ ماريتا هذا الترحيب الفاتر لذلك النبأ. فقالت:

«من غير شك أتصرف بحكمة. أنا راشدة وأعرف ما أريد. أليس كذلك؟»

«لا تغضبي يا عزيزتي ماريتا. إذا كان في ذلك سعادتك، فأنا سعيدة به. والآن يجب أن ألبي دعوة البروفسور، فإذا كان سيصبح زوجاً لابنتي...»

وسكتت لأن هذه الكلمات جعلتها تندهش وهي تتفوه بها ثم جاء هارفورد والتقط السماعة من ماريتا وقال:

«سيدة نيويل. هل سمعت الخبر من ابنتك؟ جعلتني رجلاً سعيداً جداً وسوف نسعد بحضورك هنا».

ورتبوا أن تصل جوزفين في اليوم التالي لقضاء إجازتها في مبنى الأفق. ولدهشة ماريتا ذهب رايان إلى المحطة لاستقبالها. وسمعته يتكلم مع والده ولكنها لم تعرف التفاصيل. وعندما نزلت لاستقبال والدتها أصبحت وجهاً لوجه مع رايان. قرأت في عينيه بروداً. ولما شكرته جوزفين لاستقباله ابتسم لها. ثم لما استدار وواجه ماريتا امحت الابتسامة عن وجهه.

قالت جوزفين لهارفورد:

«أمكن لرايان التعرّف عليّ بسهولة وقال لي إنني أشبه ابنتي حتى يظن أننا أختان. وهذا تكريم لامرأة في سني»

ضحك هارفورد وقال وهو يتأملها:

«نعم... إنك مثل ماريتا، ولكنك أكثر منها جلالاً وصفاء».

ثم استأذن رايان بأدب وذهب.

وأخذت ماريتا والدتها إلى غرفة منامة الضيوف، وجلست معها على السرير وبينما كانت جوزفين ترتب حاجياتها أخذت ماريتا تقلب الخاتم في أصبعها وهي لا تدري ماذا تقول.

وبعد فترة صمت حرجة قالت جوزفين:

«حسناً يا حبيبتي، سوف تصبحين قريباً امرأة متزوجة. فما هو شعورك؟»

وودت ماريتا أن تطوّق والدتها بذراعيها وتبكي من قلبها. كانت تفعل

ذلك أحياناً وهي طفلة. فبين ذراعي والدتها تجد السلوى وحل المشاكل، فلم لا تفعل هذا الآن. وتأكدت أخيراً أن الحقيقة تكمن وراء الأحلام، وكان حلمها هو حبها لرايان واعترافها له بذلك الحب.

كررت جوزفين سؤالها:

«كيف تشعرين يا حبيبتي؟»

رفعت ماريتا وجهها ورأتها والدتها وهي تحز على شفتيها ولمست الحيرة في عينيها الرماديتين فجلست بجانبها وأخذت يدها بين كفيها وقالت:

«أريد سعادتك فقط ويجب أن تتأكدي أن ما تفعلينه هو الصواب. من العار أن تخذلي رجلاً فاضلاً كالبروفسور. يبدو أنه يحبك ومستعد أن يعمل ما يرضيك ويسعدك. إذا لم تتزوجيه وبعدت عنه سوف يتألم وتتحطم حياته، فهو ليس شاباً يتحمل مثل هذه الصدمات».

«أعرف ذلك يا امي، وسأكون له زوجة صالحة. وأعرف أنه يكبرني بسنوات عديدة لكن عندما تحب الفتاة شخصاً لا يهم السن».

«وهل تحبين أستاذك يا ماريتا؟»

وبعد فترة طويلة ردت ماريتا تقول:

«إني أعجب به».

تأملت جوزفين ابنتها طويلاً ثم قامت لتستكمل عملها.

ونزل رايان إلى العشاء وتحدث مع والده ومع جوزفين. ولكنه تجاهل ماريتا فجلست صامتة بالرغم من أن هارفورد عمل ما في وسعه ليشركها في الحديث، وكانت جوزفين تضحك معه أما ماريتا فابتسمت ولكن رايان تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. ولم يبق معهم بعد احتساء القهوة معتذراً بأنه مشغول.

وبعد ذلك، عندما كانا بمفردهما في غرفة ماريتا، قالت لها والدتها:

«أتمنى أن تكوني سعيدة يا عزيزتي. فأنا أشعر بأن هناك شيئاً يزعجك أنا متأكدة من ذلك. فهلا صارحتني به؟»

صمتت ماريتا لأنها لم تقو أن تكذب على والدتها التي قالت لها:

«راقبتك أثناء العشاء وراقبت البروفسور أيضاً».
«ما هو انطباعك؟»
«لا تكوني متهكمة، يا حبيبتي، فإني أريد الوصول إلى الحقيقة... هارفورد لطيف وطيّب ورائع، وهو يمتلك الحيوية لاشك في ذلك، ولا يعاني من أمراض الكهولة التي يعاني منها غيره من الرجال، ولكنه ليس شاباً في تصرفاته يا ماريتا ومن الصعب عليه أن يتجاوب مع فتاة سنها أقل من سنه بثمانية وعشرين عاماً، فلا بدّ أن تتأقلمي على طرق معيشته لأنني سرت في الطريق نفسها ولكن رحلتي كانت مع رجل يقارب سني».
انجهت ماريتا إلى النافذة ثم قالت:
«لن أغير رأيي يا أماه... فأنت تتوهمين صعاباً لا وجود لها. إنني أقدر اهتمامك بي ولكن لا فائدة من ذلك فسأتزوج هارفورد».
وبعد يومين ذهب هارفورد إلى مانشستر حيث يعقد مؤتمر عالمي لجميعة مراقبة الطيور، وكان مدعواً لمركز هام في المؤتمر، وقبل سفره عانق ماريتا وقال لها:
«لو كنت بمفردك لأصطحبتك معي ولكني لن أغيب طويلاً».
ثم تغيّر الجو واكفهرت السماء، وكانت الأمطار تسقط من وقت إلى آخر وتمكنت جوزفين من رؤية الحديقة كلما سمح الجوّ بذلك. وفي يوم اصطحبها رايان إلى نورويش ثم تركها في السوق وقال إن لديه بعض الأعمال. وتساءلت ماريتا إذا كان يدّعي هذا العذر كي يتجنبها. ولما رأت المظلات الخشبية التي تغطي أقسام السوق وتجولت بينها وشاهدت البضائع المعروضة، تذكرت حين كانت في السوق ومرّت على القسم الذي رأت فيه الشال الأبيض الذي اشتراه لها رايان والذي استعاده ثانية. وربما أعطاه الآن لصديقته...
وقامت عاصفة بعد ليلة على غياب هارفورد، وكان الهواء يعصف مثل هواء الشتاء.
واستيقظت ماريتا بسبب الضجة التي سببتها العاصفة، ووجدت أن مقاعد الحديقة تهشمت. وأمكنها رؤية الأشجار في الغابة الى جانب الغدير.

وهبّت ريح قوية آتية من بحر الشمال، لم تمنعها التلال التي صادفتها والتي كانت كحاجز للرياح، وسمعت اصواتاً آتية من الغابة، وتذكرت ماريتا مخبأ هارفورد هناك وتذكرت أن العاصفة لا بد أن تهشمه، وهو قرّة عين هارفورد وجزء من حياته. لبست بنطلوناً من الجينز فوق قميص نومها وسترة سميكة وارتدت صندلاً ونزلت إلى البهو ودلفت منه إلى الخارج. كان الهواء شديداً فتناثر شعرها على وجهها، وكان العشب مبللاً بماء المطر فابتلت أصابعها العارية... ودخلت الغابة. واجتازت نبات العليق الذي مزق بنطلونها، وترك آثاراً على جلدها... نعم لقد وجدت المخبأ منهاراً تحت الأشجار وسقفه مهشماً وقد انقلبت المقاعد وابتل الدفتر حيث يدوّن هارفورد مذكراته، فلما وضعته في جيبها سمعت وقع أقدام تعبر العشب وتقترب منها. فشعرت بخوف يفوق خوفها من العاصفة. ونظرت خلفها فرأت رايان ينظر إليها بغضب جعلها تشعر بحاجتها إلى حماية نفسها منه. فأخذت تركض لكن الهواء أطار شعرها فحجب عينيها ومنعها من الرؤية. فاصطدمت قدمها بجزء بارز من جذور إحدى الأشجار وارتمت على وجهها وهي تئن.
ثم شعرت بيدي رايان تحاولان إنقاذها. وتمكن من الامساك بها من كاحليها ورسغيها، وبقي وجهها إلى أسفل. وكان يحملها وأحياناً يجرها فجرح الشوك وجهها ورقبتها. فأخذت تصرخ وتحاول أن تجعله يتركها. ثم شعرت بجسم الرجل يغطيها ليحميها من... ماذا؟ وسمعت صوت شجرة ضخمة تسقط قريباً منها حتى أن بعض الأغصان احتكت بها في رقدتها. وبينما بدأ الهواء الذي كان قد بلغ ذروته يهدأ هطل المطر غزيراً. ثم قام الرجل الذي ارتمى فوقها وبقيت ماريتا راقدة لأنها فقدت القدرة على الحركة.
جلس رايان وقال:
«يا إلهي! كادت تكون نهاية زوجة أبي المستقبلة. ماذا أتى بك في هذا الجو العاصف؟»
فردت تقول:
«إنه المخبأ الذي يعتزّ به هارفورد ولذلك...»

فقاطعها رايان متهكماً:

«ولذلك كخطيئة مخلصة حاولت إنقاذه مضحية بحياتك».

«لم أكن أعرف أن الشجرة ستسقط».

«أي شيء مقدر له الوقوع وربما في ذلك سقوط الأشجار. إنك مجنونة يا فتاتي، مجنونة... هل تسمعين؟»

وأعانها على الوقوف ثم أخذ كفيها بين يديه وراح يهزها حتى تخبطت أسنانها، وكانت حركاته قاسية بعد الذي قاسته من العاصفة حتى أنها أخذت تصيح وتعلن أنها تكرهه، ولا تود أن تكون فرداً من عائلته...

ولكن كلماتها انتهت بعناق بينهما اخترق تل الحواجز التي كانت تقف حتى الآن بين علاقتهما، حتى أنها شعرت بعد ذلك أن حياتها انسحبت وانتهت...

وبالتدريج أخذت طبيعة هذا العناق يعتريها التغيير. فبينما بدأت العاصفة تهدأ من حولها، كانت العاصفة التي في داخلها تقوى. وللمرة الثانية راح رايان يخترق الحواجز، وكانت عواطفه هذه المرة خالية من الغضب بل تلتهب بالاثارة والرغبة. ولم تقل له «لا تلمسني فقد أصبحت ملك هارفورد الآن ولست ملكك»، فهي ما زالت تحبه بل زاد حبها له الآن... حتى إذا كان سيجعلها تحبه فقط ثانية، كي تجابه حقيقة علاقتها بهارفورد ويتكشف لها مبلغ غباوتها. أبعدها عنه ولكنه أبقاها معه فلم يفرغ بعد من مضايقتها. فهمست تقول:

«رايان».

وكانت متفعلة تود أن ترد له دفء شعوره، ولكنه أبعدها بخشونة وكانت يداه تحت إبطها لمساعدتها في المشي. وحاولت أن ترى أي أثر ناعم في تقاطيعه أو أية إشارة بأنه يحتاج إليها كما تحتاج هي إليه. ولكن كأنها تبحث عن مسار أحد الطيور الضالة. فلم يبد أية ذرة من الشفقة أو الحنان وأخذ يضغط على ذراعيها ويقول:

«والآن يجب أن تتركي هذا المنزل وتتركي والدي. اذهبي واخرجي من حياة أبي واتركيه لأحلامه».

ولكنها لم تسمعه، فقد وضعت رأسها على كتفه تدريجياً وقالت وكأنها تهذي

من الحمى:

«إنك سادي وجبار، وقبيح، وتظن أنك لقنتني درساً... درساً آخر. قلت إنك ستلقنني الدرس تلو الدرس حتى أترك والدك وشأنه».

وسكت المطر ولكن دموعها ما زالت تنهمر على خديها. وراحت تبكي وهي مرتمية على صدره وشعرت بصدره صلباً كالجبل. ثم همست تقول:

«رايان... رايان».

ولكن قبضته لم تلن، وبقيت ذراعاه كالحبل الرقيق حول ظهرها.

ورأيا البرق ينير السماء، ولكن العاصفة هدأت عند الفجر. فابتعدت ماريتا عنه وقالت:

«إن وظيفتك تناسبك، فقلبك من حجر، ولابد أن يستخرج قلبك من جسمك ويفحص ليعثر فيه المرء على بقايا النباتات والحيوانات أو شواهد أخرى من الماضي».

قبض على ذقنها وأدار وجهها إليه فرأى على ضوء الفجر الخافت الجروح والخدوش التي سببها لها نبات العلّيق عندما جرها ليتفادى سقوط الشجرة عليها. وراحت ترتجف ولكنها لم تدر لتخبطها سبباً لذلك. هل لابتلال ملابسها، أو للنظرة الباردة التي كانت في عيني رايان؟ وكان شعره مبتلاً، كشعرها من المطر ووجهه يعلوه الغبار من رقدتها.

لقد أنقذ حياتها ولكنها لم تشكره، وفجأة حملها بين ذراعيه وغادرا الغابة والشجرة التي سقطت والمخبأ المنهار.

قالت وهي تحتج بضعف:

«لا داعي لأن تحملني، فيمكنني المشي».

ولكنه ظلّ يحملها عبر العشب متجهاً إلى البيت. ثم قالت:

«رايان!»

ولكنه تظاهر بعدم سماعها وبالرغم من ذلك استمرّت تقول:

«أنقذت حياتي، فشكراً لك».

ولكنه لم يأبه لشكرها، واستمرّ في المشي يحملها كأنها عبء يودّ أن يتخلص منه...

شكرته فلماذا يطلب بعد ذلك؟ وأنزلها في المطبخ وقال لها في حزم أن تبقى في مكانها، ثم أخرج من خزانة الاسعافات الأولية قطناً وسائلاً ملطفاً وأخذ ينظف الخدوش التي كانت في جبهتها وأنفها وتسير بطول خدها. وأخذت تقول بدون فائدة:

«لا داعي لذلك».

ولكنه استمر في تنظيف وجهها حتى نظفه كما يريد وقال:

«هل تحتاجين إلى مشروب ساخن أم بارد؟»

وكانت تود أن تشرب مشروباً ساخناً ولكنها ردت تقول:

«لا، شكراً. لا داعي أن تغالي في طيبتك فعندما يرجع هارفورد سوف أخبره عن اهتمامك بي، وأنك كنت مستعداً أن تخاطر بحياتك كي تنقذ عروسه المستقبلة من الكارثة التي سببها غباؤها».

ورأت غضبه الجامح في عينيه، فرفعت ذراعيها كي تحمي رأسها منه وابتعدت عنه. ثم رأته يقترب منها على مهل ويقول:

«أنا سادي وجبار هذه هي كلماتك هل تذكرينها؟ لم أنسها ولن أنساها أبداً. وربما كنت على حق. ولذا فأسرعي بالخروج من هنا. بعيداً عن نظري واذهبي إلى غرفتك وأوصدي الباب وراءك. وإلا فإني لست مسؤولاً عما يحدث لك».

ولم تشعر ماريتا بالرجفة إلا بعد أن دخلت غرفتها إذ أخذ قلبها يدق وأنفاسها تتلاحق، ولكنها لم تجد الذراعين اللتين تعطيانها ء حتى الدفء والسلوى ولو كانتا حديديتين!

ولما أتى الصباح وجدت ماريتا نفسها مضطرة أن تقص ما حدث فشحب وجه جوزفين لما رأت وجه ماريتا الجريح. ماذا حدث؟ وأصرت أن تعرف فأخبرتها ابنتها بما حدث.

ولما نزل رايان للافطار شكرته جوزفين فابتسم لها بحرارة وشعرت ماريتا بالبرودة تسري في قلبها. وقال لها إنه من الخسارة ألا ترث ابنتها منها

رجاحة العقل.

ولما رجع هارفورد طلب المزيد من التفسيرات. فشكرها بإخلاص عميق لذهابها كي تنقذ مخبأه المفضل.

وكان رايان موجوداً للترحيب بأبيه فقال له:

«يجب أن تكون صادقاً معها يا والدي. قل لها إن ضياع المخبأ لا يعد كارثة. فمن السهل عمل مخبأ آخر باستعمال بقايا المخبأ القديم، وقد عاينته فوجدت أنه من السهل إعادة بنائه».

فالتفتت ماريتا إليه وقالت:

«هل تحاول أن تقول إن مجهودي في إنقاذ المخبأ كان هباء ضائعاً وأنني كنت سفيهة. كما تحاول أن تجعلني أبدو دائماً؟»

وأغضب رايان والده كذلك. فقال له بغضب:

«إن الجانب المادي لا يهم. ولكني متأثر لأنها فكرت فيّ وفي الأشياء التي تهمني، وهرعت أثناء العاصفة لانقاذها بينما أنت، بعدم اهتمامك بالغير، لا تعرف عن ذلك شيئاً».

فرد بسخرية:

«شكراً لعرفانك بالجميل. أنا لم أنقذ حياة زوجتك المستقبلة من الموت المحتوم فقط بل كدت أفقد حياتي أيضاً».

وخرج رايان، وهرعت ماريتا إليه وهو يصعد السلم فالتفت إليها.. كيف تهوّن عليه. وكيف تأسو الجرح الذي سببه له والده؟ وهمست تقول:

«رايان! أنا آسفة».

وبقي وجهه جامداً وضاقت عيناه وأخذتا تطوفان بوجهها، ثم قال:

«هل أنت آسفة؟ ولماذا؟ هل أسفك عليّ أم على أبي أم عليك؟»

ثم استدار وصعد بقية الدرج.

قضت ماريتا الصباح مع هارفورد في المخبأ الذي أعاد بناءه، ولدهشة ماريتا، جاءت والدتها لتشاركهما القهوة، وكانت هي التي حملتها إليهما بدلاً من السيدة فيسك وقد تأبطت أحد المقاعد المصنوعة من القماش ثم وعدت

هارفورد أن تبقى صامتة بينما يراقب طيوره ويتعرّف على ألوانها وغنائها؟

وسرّ هارفورد لاعتقاد التشين من أذكى النساء عليه ولما رأى أن اهتمام جوزفين صادق وعد ان يعيرها كتباً في هذا الفرع. ودهشت ماريتا لتصرف والدتها التي كانت في هذه اللحظة تنظر في تلسكوب هارفورد لتتعرف على أحد الطيور، وأخذ يصفه لها:

«إن ريشه أبيض وأسود، وذيله طويل يحركه من أعلى إلى أسفل».

«لقد رأيته. رأيته على الفور».

وسرّ هارفورد لسرورها وقال:

«إنك أسرع من ابنتك. فهي تحتاج إلى وقت أطول منك لتقتفي أثر الطيور واستطاره».

«ستصبحين في يوم ما، تحت إرشادي، خبيرة مثلي».

فردت جوزفين تقول:

«كانت دائماً بطيئة في ملاحظة الأشياء. تفوتها الأشياء الواضحة التي قد تكون تحت نظرها مباشرة».

تعجبت ماريتا لعدم إخلاص والدتها لها وقالت

«يا أمي!»

ورد هارفورد يقول:

«هل تعتقدين أنها إذا رأت طيوراً مألوفة، مثل البومة، واقفة على فرع شجرة فإنها لا تراها؟»

وضحكا معاً على حساب كرامتها. فابتعدت عن هارفورد الذي قال لوالدتها:

«لقد آلمناها يا جوزفين... يا ماريتا... يا حلوة لا تغضبي بسرعة. لم نقصد إيلامك».

وقبل العشاء مباشرة شاهدت ماريتا، من نافذة السلم سيارة صغيرة زرقاء، تقف أمام المدخل وتدل على أن صاحبتها أنثى. ولم يطل بها التفكير كي تعرف صاحبتها، فلما سمعت الضحك الآتي من الممر خلفها غاص قلبها. إن ظنها لم

يخب. لقد كانت الفتاة في غرفة رايان التي كان يرحب بها.

واجتاحت ماريتا موجة عارمة من الغيرة لم تعرفها من قبل. ثم سمعت صوت بابه يفتح وحديثهما يصبح مسموعاً فجرت إلى السلم ونزلت إلى البهو مسرعة. بينما وصل رايان وصديقته إلى أول الدرج.

ونظرت ماريتا إلى أعلى ونظرت دورين إلى أسفل... كانت دورين تنظر إليها من عليائها فهي عدوتها اللدود وكانت ماريتا قد قابلت دورين في توروينش ولكنها اليوم كانت مخلوقة مختلفة تقف شامخة على أول السلم.

ارتكز رايان على درابزين السلم، وأخذ ينظر إلى المرأتين، ولم يبادر أحد بأن يقوم بواجب التعارف فاستدارت ماريتا وقصدت غرفة الجلوس وهناك أحست بأنها أصبحت، من خلال خطبتها إلى هارفورد، صاحبة البيت. وكان عليها أن تبادر بالترحيب بدورين ولا تنتظر من رايان أن يجمعهما.

ولما دخلا الغرفة كانت دورين البادئة بالمبادرة. فاجتازت الغرفة مادة يدها فلامست ماريتا وسلمت عليها وهي تبتسم. ثم قالت دورين وهي تنظر إلى خاتم ماريتا:

«لقد تقابلنا من قبل. في مكان يفتقر إلى كل هذه الفخامة. ويجب أن أهنئك لخطبتك إلى البروفسور تيودور، وأرجو لك السعادة. من غير شك سوف تعوضين كل ما ينقصك برغد العيش هنا».

وكانت تبتسم بكبرياء، فالتهب وجه ماريتا من المعاني المستترة وراء كلمات دورين، فهي في نظرها ستتزوج هارفورد لماله وممتلكاته. ثم قالت دورين وهي تلتفت إلى رايان:

«التي يتزوج رايان لا يغفل ذلك لهذا القصر الفخم أو للترف الذي يغدقه عليه والده...»

وركزت نظرها عليه وهي تقول:

«إنك دائم الرحيل يا حبيبي. ولا ممتلكات لك ولا روابط تعوقك ولا تحمل هماً من هموم هذه الدنيا».

فأجاب رايان وهو يبتسم ويسكب المشروبات:

«أنا ولدت رحلاً. أطوف في الأدغال وأجتاز الصحارى ولا أترك ورائي شيئاً سوى آثار قدمي على الرمال. من غير امرأة تطاردني وتتعلق بملابسي وتقول إنها تحتاج إليّ ولا تدعني أفلت منها».

فشحب وجه ماريتا وردت تقول:

«لا أجد أي امرأة تملك ذرة من العقل تريد أن تطارد رجلاً مثلك، لا يقدر المسؤولية ولا يهتم إلا بنفسه».

فضحكت دورين وقالت:

«من دواعي السرور أن تري، يا آنسة نيويل، أنك سوف تصطدمين بابن زوجتك».

نظرت ماريتا إلى رايان والكلمات تدور في رأسها. ابن... زوجها... وارتجفت يدها حتى، أن رايان أخذ الكأس من يدها، وبدا كأنه يفكر في هذا الوضع إذ ابتسم... ولكن لم تفكر هي من قبل انه سيكون.. ابن زوجها...

٩ ـ المركب

بعد العشاء جلست جوزفين بجانب هارفورد على الأريكة تقلّب كتب الطيور وتعجب بألوان ريشها الزاهية. وكانت ماريتا تعرف أن والدتها لها ذاكرة قوية تسجل كآلة التصوير، وكان مقعد رايان يقارب مقعد دورين، وكما ظنت ماريتا كان حديثهما يدور حول الجيولوجيا. ولكن رايان كان يختلس النظر الى ماريتا وهي جالسة تقلّب صفحات المجلة التي أعارها لها هارفورد، وتحوي مقالاً كتبه بنفسه عن طيور شرق أنغليا. فقرأت المقال ولكنها لم تهتم به.

ثم أخذت تراقب والدتها و هارفورد، فوجدت أن والدتها قد خطت خطوات واسعة في توطيد العلاقة بينها وبين خطيبها. وكانت والدتها تظن أنه بعد زواج ابنتها سيصبحون جميعاً عائلة واحدة سعيدة، بما فيهم الابن ولذلك اظهرت الود نحو صديقة الابن فهل ظنت أنه جالس بجانب زوجته المستقبلة؟

ولاحظت ماريتا أن هارفورد تغيّر تغييراً كاملاً خلال الأسابيع التي قضتها معهم، فذهبت صورة ذلك الأستاذ بملابسه العتيقة، وأصبحت لا تعرف الرجل الذي كان يطوف بالمعمل شارد الذهن ويتجوّل ويتمهّل بجانبها ليوجه اليها النصيحة.

نظر اليها، فلما رآها جالسة وحيدة، أشار اليها أن تجلس بجانبه، ثم لفّ ذراعه حول وسطها وشعرت بقبلة سريعة على رأسها فنظرت اليه بعينين لامعتين، وشعرت بالسعادة لمحبته لها.

ولم يلفت نظر جوزفين شيء مما يدور حولها، وأخذت تتحدث عن صور الطيور النادرة التي توجد في الكتاب، وبذلك تحوّل اهتمام هارفورد عن ماريتا. ولكن من الذي يمكنه أن يسحب ذراع هارفورد التي تطوّق وسطها؟ ومن الذي يمكنه أن يخلع خاتمه من أصبعها؟ انها لن تخضع ثانية لسحر رايان فقد ذاقت الذلّ على يديه وشعرت أنها الآن محصنة ضد سحره، فلن تتألم مهما بدا منه. ثم أدار رايان اسطوانة راقصة وفتح ذراعيه لدورين وأخذا يرقصان في أرجاء الغرفة.

وكان ينظر الى دورين ويتكلمان أحياناً ويضحكان كثيراً، فاقتربت ماريتا من هارفورد أكثر. ثم توقفت الموسيقى ولكنها أعادها ثانية واستمرا في الرقص. وعندما أبدت جوزفين رغبتها في شرب القهوة هبّ هارفورد ينادي السيدة فيسك طالباً احضارها. وشعرت ماريتا بهوة بينها وبين والدتها، ولم تحاول أن تقترب منها ولم تشجعها جوزفين على ذلك فتألمت ماريتا ولم تفهم ماذا طرأ على والدتها... وفجأة وجدت ماريتا رايان واقفاً أمامها يدعوها الى الرقص. فشعرت بالخوف لأنها لا تريد أن تلمسه وحاولت أن تتلافاه، ولكنه قبض على رسغها وأوقفها فقالت دورين:

«دعي رايان يراقصك فهو يحبّ التغيير واذا تزوج يبقى بجانب زوجته لفترة ثم يتركها للبحث عن غيرها».

قال رايان وهو يضم ماريتا الى صدره:

«نعم سأتركها وما زالت قبلات شهر العسل على شفتي».

قالت ماريتا:

«لا أريد الرقص معك فأنت لم تستأذني».

«الاستئذان ليس من طبعي، بل عليّ أن آخذ ما أريد ثم يكون جزائي ذراعين تطوقان عنقي».

«انك همجي وقاس».

«قلت هذا من قبل...»

«اذن دعني أذهب».

«لا».

ثم رأت هارفورد راجعاً الى الغرفة وعلى وجهه تعبير من عدم الرضى ثم جلس بجوار جوزفين وقال:

«عندما أتزوج يجب أن تأتي للاقامة معنا حتى نذهب جميعاً لمراقبة الطيور».

ولما فرغ رايان من الرقص انحنى بسخرية لماريتا ثم عاد الى دورين التي رحبت به.

وفجأة استدعي هارفورد الى الجامعة. وسأل ماريتا ان كانت تريد الذهاب معه، ولكنها اعتذرت لأن رجوعها الى عملها كخطيبة لرئيس القسم يجعلها تشعر بالخجل، ولن تحب أن تواجه زملاء هارفورد والخبراء، وكبار رجال التعليم. كما أنها في قرارة نفسها لم تتقبل فكرة خطوبتها الى الرجل الذي كان رئيساً لها.

وذهب هارفورد في الصباح وهو يؤكد لها أنه لن يمضي الليل بعيداً عنها حتى لو عاد في ساعة متأخرة، اذ لن يؤخره شيء عن فتاة أحلامه.

وفي منتصف النهار كانت ماريتا في غرفة والدتها تجرب احدى بلوزات الأم عندما سمعت نقراً على الباب، فدعت القادم للدخول ظناً أنها والدتها، ولكنه كان رايان فصاحت قائلة:

«لا، لا يمكنك الدخول. لقد ظننت أنك...»

«والدتي... التي كنت سترحبين به بذراعين مفتوحتين فهو خطيبك!»

«لا تكن سخيفاً. فوالدك سافر، وأنا أجرب بعض الملابس...»

«استمري. فمنظر النساء وهن يخلعن ثوباً ويلبسن آخر لا يخجلني...»

«هل رأيت الكثير منهن؟»

فضحك وقال:

«كثيراً جداً».

«ماذا تريد؟»

«أولاً أن أعطيك الشال...»

«وإذا لم أكن أريده ثانية؟»

«كفي عن عبثك معي يا حبيبتي. والا نالك أكثر مما ظننت. أو ألقه حول عنقك ثانية كما فعلت في المرّة السابقة؟»

وكان ذلك في الليلة التي اعترفت له فيها بحبها. وكانت لحظة هامة بالنسبة اليه لأنها تعتبر انتصاراً له.

قالت:

«لماذا أعدت الشال اليّ؟»

«ربما نزوة أو ترضية، فيجب أن يسود بيننا التفاهم لا سرعان ما ستصبحين فرداً من عائلة تيودور».

«بل من الأجدر أن تدعوها هدنة أو راحة من الحرب».

«اذن، هدنة. واستعدي لأننا سنخرج».

«الى أين؟»

«هل تذكرين المركب التي أخبرتك عنه... الجو منعش والوقت مناسب لرؤيته».

«وهل نترك والدتي وحدها هنا؟»

«سنأخذها الى نور فولك لترى معالم المدينة وتجوب المحلات».

«وماذا عن دورين؟»

«ذهبت وتركتني».

«ولكن لماذا؟ كنت اعتقد...»

«اكتشفت أنها تضع هدفاً لها وهو الزواج. وهذا هو عيب النساء. فبعد بضع قبلات يتخيلن أن قسيمة الزواج أصبحت قريبة منهن».

«انك حقير!»

فضحك عالياً وقال:

«وظيفتي تحتم عليّ العيش في أماكن مقفرة، وأنا لست راهباً. فحين أحصل على اجازتي أوازن بين المعيشتين. ولذلك تعودت على النساء اللواتي لا يشكين الفراق ويقبلن ألا يرينني ثانية».

«كما تقول: خذ الحب واذهب».

«نعم».

«لم أفطن إلا الآن كم أكرهك».

قال:

«سأعطيك عشر دقائق حتى تستعدي».

ثم غادر الغرفة وخرج.

مرّا في طريقهما عبر قرى وحقول، ومنازل قديمة، تحمل آثار الزمن السحيق. وتناولا غداءهما في مطعم قديم يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر. وفي الطريق الى البحر سألته ماريتا:

«وأين يقف المركب؟»

«بالقرب من هورننغ وعادة يذهب الذين يقيمون في المراكب الى المحلات القريبة قبل أن يتوجهوا الى مراكبهم وبما أننا نقيم هناك فلن نعرج على هذه المحلات».

وكان المركب صغيراً فيه حجرتان للنوم، وطاف بها في أرجائه ثم أشار الى المطبخ وهو يقول:

«وهنا تجد الحمام وخزائن الحائط وفي غرفة النوم أرائك للنوم، وتستعمل للجلوس نهاراً. وتوجد غرفة أخرى للنوم فيها كل وسائل الراحة الحديثة. وهي مثالية لقضاء شهر العسل. فهل تظنين أن والدي سيأتي بك الى هنا».

اضطربت لهذا الخاطر. هل تبقى وحيدة مع هارفورد ليلاً ونهاراً.

«والآن ما رأيك في المركب؟»

«انه رائع... هل نبقى فيه أم نبحر للنزهة؟»

«سنذهب للنزهة».

ثم أدار المحرك وفك الحبل وقاده الى وسط النهر بمهارة. وسارا بين مراكب شراعية وقوارب تجديف ولنشات بخارية، ورأت فنادق بحدائق ممتدة الى النهر وشمسيات مخططة تظلل الموائد.

وكان رايان يقود المركب بخبرة وحان وقت الغداء فنظر اليها فرأى شعرها يطير ورائها مع الهواء وقد ارتسمت نظرة رضى على وجهها فقال:

«هل تشعرين بالحرج؟ لن كل شيء معد... أمسكي بعجلة القيادة».

«لا... لا يمكنني ذلك».

«ألا تقودين السيارة؟»

فأومأت برأسها فقال:

«اذن يمكنك قيادة السفينة. حتى يحين الى أن آتي بالطعام».

تقدمت ماريتا على عجلة القيادة، ووضعت يديها عليها فقال لها:

«أمسكي العجلة بحزم، وحاولي ألا تصطدمي بشيء».

وتركها تقود المركب وحدها فشعرت بالانتعاش لهذه التجربة، وكان المركب يشق الماء ويسير بين مجموعات البط البري السابحة في النهر.

وقف خلفها وقال:

«هاتان بجعتان... ربما كانا ذكراً وأنثى وهما طيران جميلان».

فجفلت ماريتا وقالت:

«أرجو أن تأخذ عجلة القيادة».

«ولكنك تحسنين قيادة السفن».

«أنا خائفة أن أصطدم بالشاطىء».

عانقها... لكنها مضت تقول:

«أشعر بجوع شديد».

فأزاحها من القيادة وقال:

«سأجد مكاناً نربط المركب فيه ونتناول الطعام».

وأدار المركب ناحية الشاطىء، وقفز على البرّ وربطه في جذع شجرة.

وسألته ماريتا:

«كيف حصلت على هذا الطعام؟ هل هي السيدة فيسك؟»

«لا أنا اتصلت بأحد أصحاب المحلات المجاورة لمرسى السفن فجاء بالطعام ووضعه في القارب».

وأشار الى وعاءين لحفظ الشاي والقهوة:

«هنا ما تختارين من الشاي أو القهوة والسكر والحليب المجفف».

«لم ينس أي شيء. هل أبدأ في الطعام؟»

«لا تستأذني في ذلك فأنت شريكة في اليخت اذ أوشكت أن تصبحي عروس أبي».

وتغيّر وجهه فذهبت ابتسامته وحدت نظرة عينيه.

وبعد الغداء استمرا في النزهة، وكانا يبعدان عن المنزل مسافة طويلة تناهز ساعتين في السيارة ابتداء من البحر.

ثم قال لها وهو يشير الى أحد الطيور:

«دعيني أعرف كم افدت من تعاليم والدي. هل تعرفين هذا الطير؟»

فجاهدت لتعرفه وكانت على وشك الاعتراف عندما صاحت قائلة:

«أراه! ولم يكن والدك هو الذي أشار لي عنه بل أنت. وكان ذلك في بركلاند... هل تذكر؟»

«نعم أذكر ذلك اليوم الجميل. ثم النظري... هذا طير اسمه ملك الصيادين».

«نعم وهو جميل».

ثم قالت له بخجل:

«انك تعلمني أشياء أكثر مما يعلمني والدك».

وساد بينهما صمت كانت تتخلله أصوات الناس على الشاطىء وضحكاتهم وكانت الحقول ممتدة ترعى فيها الماشية. ثم قال وما زالت ذراعه تطوق خصرها

«البعض يقولون أن هذه المنطقة هي صورة مصغرة لهولندا. كما أن طواحين الهواء تعمّق هذا الشبه».

ثم لاحظت أنه يرسو على منطقة ظليلة من الشاطىء، فسألته.

«أين نذهب الآن؟»

«لنستريح ونأخذ حمام شمس».

«أليس من الأجدر أن نرجع؟»

«ونترك الشمس الدافئة؟ ومع ذلك لم نأكل بعد وجبة العشاء. فصاحب المحل أرسل لنا طعاماً يكفينا أسبوعاً».

ثم نظرت حولها على الشاطىء وقالت:

«لا يوجد شيء تستريح فوقه».

فما كان منه الا أن أحضر بطانية من المركب تمدا عليها جنباً الى جنب، وكان قربه منها يثيرها فقالت له.

«أين اكتسبت لون سمرة الشمس؟ هل اكتسبتها من محل عملك في الخارج ؟»

«لا اني راجع لتوي من شمال ألاسكا ولكني قضيت فترة عمل في ماليزيا قبل ذلك، حيث لوحتني الشمس بلونها».

«لا بد أن اختلاف الحرارة من بلد الى آخر قد ضايقك؟»

«كان صدمة لي. احتجت الى أسابيع لأتأقلم على البرودة في ألاسكا وكان الهواء يزمجر طول الوقت وكنت أرتدي طبقات من الملابس وقبعة من الصوف وقفازاً وحذاءً طويلاً وسترة لها ياقة من الفرو ونظارة تقيني وهج الثلج».

وضحكت وقالت:

«وهل تركت لحيتك تنمو؟»

«نعم كانت حلاقتها متعبة، ثم لتحميني من البرد».

«وهل كنت تشبه والدك بلحيتك؟»

«لا، فنحن مختلفان في الشبه، فهو أسمر وأنا أميل الى اللون الفاتح».

«هل تشبه والدتك؟»

«ربما...»

ثم صمت فترة وعاد يقول مغيراً الموضوع:

«قسوة الجو تخلق مشاكل لاستخراج البترول مثل كيفية استخراجه ونقله الى المناطق المأهولة من العالم».

«ألا يمكن استخدام السفن؟»

«البحار تتجمد لمدة طويلة من السنة».

«كنت أظن أن الطريقة المثلى هي استخدام الأنابيب».

«نعم، هذا ممكن فوق اليابسة».

«كيف تعرف مكان البترول لاستخراجه؟»

«ندرس أولاً صوراً من الجو وتكوين الصخور الموجودة على عمق آلاف الأقدام،

ونستخدم الآلات لمعرفة التغيرات في مغناطيسية الأرض وقوة جاذبيتها، أو نستخدم جهاز الزلازل لاحداث زلزال صناعي يخرج أمواجاً تسير في اتجاهات مختلفة بقوى متفاوتة بين الصخور. وعندما نعثر على تكوين الصخور المطلوب نقوم بتجارب عليها. وعندي بعض منها في مكتبي».

نهضت وأخذت تنفض ملابسها وهي تقول:

«يجب أن أذهب الى المركب فقد حان وقت رجوعنا يا رايان».

تبعها الى المركب وهو ينظف البطانية، ولما وصلا، ارتدى رايان قميصه وراحا يتناولان طعامهما.

«استمتعت بيومي يا رايان... وأشكرك لذلك».

«انه من دواعي سروري أن تكوني معي».

ثم أدار المركب واتخذا طريق العودة على مهل. وكانت الشمس تميل الى الغروب، وتعكس أشعتها على المياه الهادئة. وكانت الزوارق قد خلت ما عدا مركب أو اثنين.

وتنبهت مارينا الى أنها في مياه غريبة عنها فأخبرت رايان ولكنه اكتفى بالضحك. وبعد فترة رأته يجنح الى شاطئ، في بقعة متوارية تحيطها الأشجار الكثيفة.

فارتابت مارينا وسألته:

«أين نذهب الآن؟»

«سنمضي الليل هنا».

حاولت أن تأخذ عجلة القيادة منه، ولكنه ألقاها بعنف جانباً فسقطت فوق حلقة من الحبال.

«لا يمكن ذلك فوالدتي ستقلق لغيابنا ولا حق لك في عمل ذلك».

«لا يهمني، بل سنبقى هنا».

فهبت تقول:

«أرجوك يا رايان عد بي الى المنزل».

وكان المساء قد ساد والهواء أصبح بارداً، فهل تقضي معه طول الليل، وهي لا

حول لها ولا قوة.

«وهل أدع هذه الفرصة الذهبية؟»

«وهل هذه احدى حيلك كي تبعدني عن والدك؟»

«أنت وأنا هنا قليا لا ننتهز الفرص؟»

«ليست لك أي مبادىء... وأنت انسان قاس».

ثم قفزت من المركب وأخذت تجري نحو الأشجار وتخوض في نبات العليق الشائك، ولكنه لحق بها وأمسكها وقال:

«ستبقين معي حتى اذا اضطررت أن أقيدك بالحبال. واذا حاولت الفرار مرة أخرى فلست مسؤولاً عما يحدث».

وارتمت على احدى الارائك ولكنه جلس بجانبها ولما ابتعدت عنه قال:

«اخضعي لي يا حبيبتي، وأعطني ما أريد وما تريدين، ولن تندمي على ذلك أبداً».

أخذت تبكي فقال لها:

«سأريك كيف يكون حب الشباب فأنا الربيع لا الخريف كوالدي».

ثم عانقها فشعرت أنها أصبحت جزءاً منه وحاولت أن تقاومه فلم تفلح، ثم فكرت أن تستعمل سلاح الكلام. فقالت:

«لن تنالني ثم تتركني كما ذكرت لي. ولن أطوق عنقك شاكرة فأنا لست من الفتيات اللواتي يحببن رجلاً ثم يشاهدنه يذهب وهو لا يبدي أي بادرة لشعوره. أنا أحب والدك يا رايان وهو يثق بي، ولن أجعله يأسف لكل هذه الثقة».

كانت تقول هذه الكلمات دفاعاً عن نفسها، فرد قائلاً:

«حسناً. انك الآن في أمان ولن أمسك فقد اصبحت والدة لي».

والدته... نعم فبزواجها من والد رايان تصبح زوجة أبيه، ومهما حاولت أن تبعد هذه الكلمات عنها فقد أخذت تدور في ذهنها.

وظلا صامتين طوال رحلة العودة في الصباح الباكر، وقد أمضت ماريتا ليلاً قلقاً يتخلله بكاؤها. أما رايان فقد نام نوماً عميقاً. وكان تنفسه منتظماً ولا

بدّ أنه كان متعوداً، أثناء عمله، أن ينام في أماكن متعبة مثل نوم المركب.

وكانت رائحة الزهور جميلة والطيور حولها تطير وتحلّق في الجو. وكانت ماريتا تشعر بالتعاسة وتأسف لأنها لا تتمتع بالجمال المحيط بها.

وظلا طوال رحلة العودة في السيارة صامتين وعندما اقتربت الرحلة من نهايتها قالت ماريتا:

«لا بدّ أن أجد والدتي فور رجوعي وأخبرها بما حدث».

«ولكنها تعرف مكانك».

«والدتي تعرف؟ هل أخبرتها؟ هل تآمرتما كي أبقى معك طوال الليل؟»

وبدأت تسأل نفسها:

هل تآمرت جورزفين معه فعلاً؟ ولكن لماذا؟ ولما لا؟ فهما يتشاركان في الرأي بأن ماريتا يجب أن تترك هارفورد ولا تتزوجه. وعند وصولها تركت ماريتا السيارة قبل أن يتمكن رايان من ايقافها، ثم قالت لنفسها انها يجب أن تخبر هارفورد. لحق بها رايان وأمسك بيدها وقال:

«تعالي لأريك شيئاً من حقك أن تريه».

وفي البهو التقيا بجوزفين فقالت ماريتا:

«كيف تفعلين بي هذا؟»

لكنه قادها الى غرفة والده التي لم ترها من قبل، وفتح الباب ودفعها داخل الغرفة. فلم تجد أباه فيها، بل تسمرت في وقفتها اذ رأت شيئاً لا يصدقه عقل.

شاهدت في كل ركن من الغرفة وفي كل شبر منها صورة فوتوغرافية لشابة تشبهها الى حدّ كبير... فالعينان لوزيتان مثلها تماماً والفم مكتنز والحاجبان مقوّسان وعظام الوجنتين العاليتين مثلها بالضبط ولكن الذي فاق كل شيء في الشبه هو لون شعرها البني المائل الى الذهبي... اذن فرايان يشبه والدته.

وكانت غرفة هارفورد محراباً لزوجته الراحلة التي لم ينسها ابداً. وكان هذا الشعور يفسرّ أشياء كثيرة. فالكلمات الغريبة التي كان يقولها بأنه يعرفها منذ سنوات طويلة وأنه انتظرها لترجع اليه وعن الثوب الأصفر وعن الطريقة التي أمر بها رايان ألا يقترب منها...

امتلأ قلبها بالشفقة عليه. ثم استدارت على صوت هارفورد وقد تطاير شرر الغضب من عينيه، مما أخافها:

«اذن أمضيت الليل مع ولدي وأصبحت ملكاً له؟!»

تحركت نحوه ولكنه تراجع، فقالت:

«هذا ليس صحيحاً يا هارفورد. نعم أمضينا الليل معاً في المركب ولكن كل واحد كان بمفرده».

«أنا لا أصدقك. فأي امرأة تمضي الليل معه لا تبعد عن ذراعيه... انني أعرف ولدي جيداً».

« هارفورد، أين الثقة؟»

«تتكلمين عن الثقة؟ أنا لا أثق فيك بعد الآن».

وكان يتكلم ولا يدري ماذا يقول وكأنه يكلم شخصاً آخر.. ربما كان يكلم المرأة التي عاشت نقية في خاطره لسنين طويلة!

الأحلام ذهبت الى غير رجعة. الأحلام التي وراء الأفق ووراء هذه الأحلام جابهت الخليلة.

١٠ ـ أقدام على الرمال...

انتهى كل شيء، وأصبحت ماريتا وحيدة وأطلت من نافذة غرفة الاستقبال في منزلها وهي تتساءل: متى تعود والدتها؟ أصبح مبنى الأفق وهارفورد ورايان من الماضي وانتهى فصل من كتاب حياتها. وأصبحت كذلك بدون عمل لاستقالتها حسب رغبة هارفورد عندما خطبها.

ولم يشعر أحد برحيلها، فبعدما هربت من وجه هارفورد الغاضب كان كل واحد منهم في غرفته. وبقيت هي وحيدة، كأنها نفيت الى جزيرة بعيدة.

ودق جرس التليفون كما دق مرات كثيرة ذلك الصباح واليوم السابق منذ وصولها، ولكنها تجاهلته فلم ترد... مهما كان الطالب... هارفورد أو والدتها أو رايان ـ فلن ترد عليه اذ ليس لديها شيء تقوله لأي منهم.

ولم تأخذ إلا معطفها ومضت الى البلدة واستقلت الأوتوبيس الى نورويتش ثم أول قطار الى منزلها وتركت والدتها تجمع الحطام.

ولكن مرّ يومان ولم تحضر والدتها. حتى المكالمات الهاتفية كفت، وكان صمت الهاتف بعد رنين مستمرّ يؤثر على أعصابها وأكثر مما فعل الرنين الدائم.

وفي الليلة الثالثة دق جرس التليفون في الفجر، وكان رأسها يدور من تأثير النوم ومقاومتها تندحر أمام ضعفها. نزلت ماريتا الى الصالة وردت:

« ماريتا! حبيبتي... حاولت كثيراً الاتصال بك. هل أنت بخير؟»

«نعم. وشكراً يا أمي...»

«أنا قلقة عليك يا عزيزتي. لماذا لم تردي على التليفون؟ يا حبيبتي رايان يود

أن يكلمك».

وضعت ماريتا الساعة ورجعت الى سريرها. لكنها لم تنم بل رقدت متيقظة وانتظرت أن يدق جرس التليفون ثانية ولكنه ظل صامتاً حتى بعد طلوع الشمس، ولما خاب أملها راحت في سبات عميق. أيقظها منه رنين جرس الباب.

ولما نظرت في ساعتها وجدت أن النهار انتصف فالتقطت الروب وهبطت درجات السلم. لا بد أن تكون والدتها جاءت أخيراً ولكنها تذكرت وهي تفتح الباب أن والدتها معها مفتاح.

ورأت رايان وقد وضع كتفه في الباب وظلّ يدفعه ثم أغلقه ووقف ينظر اليها وهو عاقد الذراعين على صدره، وتذكرت أن ملابسها غير لائقة وشعرها مشعث.

وهمس يقول:

«تماماً كما توقعت. وجه شاحب وظلال تحيط بالعينين ونحول نتيجة لفقدان الشهية... هل فسخ الخطبة أثر عليك لدرجة المرض؟ هل تريدين العودة الى أبي؟»

قالت بهدوء:

«اذهب وإلا استدعيت البوليس».

وقف بينها وبين التليفون وقال:

«إنك تعرفين كيف أصارع النساء وأتغلب عليهن؟!»

وقادته الى غرفة الجلوس وظنت أنه غافل عنها فحاولت الوصول الى التليفون، ولكنه كان منتبهاً الى هذه الحركة فاستدار وأمسك بها وشدها الى صدره بشدة.

وأبقاها بقربه، لكنها تملصت منه فضغط على ذراعيها وقال لها وهو ينظر إليها:

«كوني لطيفة، فإنك عزلاء».

وكان قميص نومها قصيراً ذا صدر مفترح فقالت له:

«سأكون لطيفة يا رايان إذا تركتني أرتدي ملابسي، وأعدك ألا أهرب. تركها فأخذت تدلك ذراعيها حيث أمسك بها ثم قال:

«احفظي وعدك لي وإلا سأتصرف بما لا يلائم سمعتي... ولن أرحمك هل هذا

مفهوم!»

هزت رأسها وارتقت الدرج خطوة خطوة. ولما وصلت الى نهاية السلم كان قلبها يخفق. وكان عليها أن تعمل ما في وسعها لتجعله يغادر المنزل. وارتدت بنطلوناً وبلوزة مضلعة ومشطت شعرها ووضعت بعض المساحيق على وجهها ثم تساءلت هل تجد الهمة والشجاعة لتجعله يذهب؟

ولما نزلت وجدته ينتظر في الصالة وتبعها إلى غرفة الاستقبال ولا بد أنه لاحظ ظروف معيشتها والفرق بينها وبين مبنى الأفق ولكنه لم يبد إشارة تدل على ذلك.

أشارت اليه أن يجلس لكنه ظلّ واقفاً ثم قال:

«والدي يريد رؤيتك. وَدّ أن يفسر لك كل شيء، ويفضّل أن يكون التفسير شفهياً وليس مكتوباً».

«أدرك كل شيء، ولا أحتاج الى تفسير».

«حسناً إذا لم تسمعيها منه فاسمعيها مني. ولنبدأ من البداية. والداي تزوجا في صدر شبابهما اذ لم يكن عمر كل منهما يتعدى التاسعة عشرة، وكان أبي على علم بأن والدتي تعاني من مرض القلب وقد حذرها أحد الأطباء من الانجاب لكنها لم تأبه به وأقنعت والدي بإنجاب طفل كانت في أشد الشوق اليه. ثم توفيت بعد ساعات من مولدي عرفت خلالها أنها انجبت ولداً، وهمست الى هارفورد أن يسميه رايان هارفورد تيودور».

ونظر من النافذة ثم قال:

«كانت تعرف أنها لن تعيش، ولكنها أخبرت والدي في النهاية أنها تأسف لفراقه. لقد كانا متحابين، وبقي والدي مقيماً على حبها بعد وفاتها حتى أنه حوّل غرفته إلى محراب يقدس فيه ذكراها. وأقسم ألاّ ينساها وألاّ يتزوج أبداً».

ثم تقدم رايان ووقف أمامها وأضاف:

«الى أن قابلك فرآك تشبهينها. وبالرغم من أنه عالم يفكر باتزان وبعقله كان يجزم بأنها رجعت كي تعيش في شخصك».

نظرت اليه بعينين واسعتين وقالت:

«كان متعوداً أن يأتي ويقف بجانبي ويراقبني وأنا أضع المعدات والأدوات استعداداً للتجارب. ولم أفهم السبب».

«والآن؟ هل فهمت السبب؟ وهل فهمت سبب دعوته ولماذا كان يعانقك ويلاطفك؟»

«لم يلمسني كما تظن حتى ولا بعد الخطوبة. بل كان يعاملني بكل احترام».

«هذا ما أعنيه. فقد اعتبرك زوجته وأنت لست كذلك».

«ولماذا تتعاركان دائماً؟»

«كان يعاقبني لأنني السبب في وفاة والدتي، وكان عليّ حمل الوزر طول حياتي. وفي الحقيقة كان يلقي جزءاً من الذنب على نفسه».

ثم قال:

«لقد أبقيتك معي طول الليل في المركب، وكان ذلك بعلم والدتك لأنني أعرف أنه سيظن بنا الظنون، وانني كنت آمل ان يكون ذلك كافياً ليثوب الى رشده. وأدخلتك غرفته كي ترجعي أنت أيضاً الى عقلك والى الحقيقة».

لم يبق شيء بعد ذلك. وتركت ماريتا لرايان الخطوة التالية فقال:

«كلمت والدتك مرّة بالتليفون. واشتركنا في حديث طويل عنكما واكتشفت معارضتها للخطبة فشجعتها على قبول الدعوة بأن تأتي الى مبنى الأفق كي تصحح بفسخ الخطبة».

«وهل هذا السبب الذي ذهبت لأجله إلى المحطة لانتظارها؟ وكنت أتساءل كيف عرفتها».

«إنها مثلك وتهديك سلامها، ويمكنني أن أقول لك إنها تتقارب مع والدي بسرعة، وقد أقنعته أن يجمع الصور الفوتوغرافية من غرفته وهي تأمل أن يمضي في الحياة، في يوم قريب، مع شريكة جديدة».

ثم ابتسم وقال:

«وفي اي حال هي تشبهك كثيراً وبذلك تشبه والدتي أيضاً. ولكنها تكبرها كثيراً».

أمها و هارفورد ؟ الفكرة أدهشتها في البداية ثم راقت لها كثيراً.

ثم قال:

«لا بد أن تعرفي كذلك أن التوتر الذي يقوم بيني وبين والدي خفّ كثيراً».

وكان أميناً في قوله أنه أبقى عاطفة الأبوة تحوي تحت يد من حديد وأصبحنا الآن صديقين... علاوة على أب وابنه».

ثم سألته ماريتا:

«هل هذا كل ما هناك؟»

«وهل عندك ما تقولينه؟»

فسألته عما يقصده فرد بقوله:

«في ليلة جميلة سمعت منك عبارة، وما زلت أتساءل إذا كانت صحيحة».

«بأنني أحبك؟ قلتها تحت التهديد... وقد سمعتك تقول لوالدك إنك عملت ما في وسعك كي تجعلني أحبك، حتى يرجع الى عقله. فما فائدة هذه العبارة الآن؟ وإني أعرف رأيك في النساء فلا تريد روابط ولا أطفال تعوق طريقك. وأنت تعرف أيضاً رأيي فيك. أخبرتك بذلك مرات عديدة».

«إذاً هذا كل شيء».

ثم وقفا ينظران الى بعضهما البعض، هو بنظرة لا مبالاة وبرود وهي غير مصدقة ـ أنها لن تراه ثانية بعد أن طردته من حياتها... ثم قالت بجمود:

«الوداع».

«الوداع يا ماريتا».

ومال عليها يعانقها ولكن هذه المرة كانت عاطفته قد امتزجت بالحنان فخضعت لعاطفته الجديدة... لرقته وحنانه بدلاً من قسوته السابقة عليها.

ونظرت اليه وهو يتركها بعدما جعلها تتجاوب معه وترد قبلاته ثم تركها واتجه نحو الباب... فامتلأت عيناها بالدموع وقالت له:

« رايان ـ خذ الحب ثم اتركه واذهب. هل تؤمن بكل كلمة من هذه العبارة؟»

«نعم أؤمن بذلك. ولكن المعنى يختلف فقد أصبحت العبارة الآن. لم أتمكن من أخذ الحب ولذلك يجب أن أذهب... الوداع يا ماريتا».

ثم اتجه نحو الباب ثانية. ولكنها هرعت وراءه وهمست تقول:

«لا تذهب. قل لي معنى هذه العبارة أرجوك».

«أليس من الأصلح أن تقولي ماذا تعنين؟»

ولم يقو لسانها على الكلام ثم قال لها:

«إذا لم تكوني قادرة على الكلام أخبريني بالفعل».

فجرت اليه وطوقت خصره بذراعيها وألقت برأسها على صدره فقال لها هامساً:

«انظري اليّ يا حبيبتي...»

ولما نظرت اليه قال:

«أحببتك من النظرة الأولى، وعرفت لماذا اختارك والدي. فالشبه الذي يجمعك بوالدتي لا يصدقه عقل. وقد عرفت من البداية خطأ والدي وذلك لصغر سنك، وكنت أعلم باحتفاظه بصور والدتي في غرفته وأعرف أنه يتخيل أن زوجته الحبيبة قد عادت إليه وأنه يحاول أن يمزج شخصيتك بشخصيتها، وكانت المشكلة هي كيف نجعله يعرف خطأه، ونجعلك تعرفين خطأك».

ابتعدت عنه قليلاً وقالت:

«ولماذا تتعاركان؟ ولماذا يبدو أنه يكرهك؟»

«تذكري انه تألم لمدة اثنين وثلاثين عاماً كان يعاني فيها الشوق لحبه المفقود. ولما كبرت قليلاً لم يكن عادلاً وكان يلومني لموت والدتي وأخيراً أعادته سعادتي بك».

ولكنها كانت تريد المزيد من التأكيد فقالت:

«ولكن يا رايان... لقد عرفت دورين وفضلتها عليّ».

«عرفتها بهدف أن أثير غيرتك، فهل نجحت في ذلك؟»

«لقد ذقت الأمرين».

«انني سعيد بذلك، وآسف يا حبيبتي، لكني أحذرك فلن أكون العاشق الرقيق دائماً. ولكن كنت أود أن أحارب والدي بكل الأسلحة التي أملكها... بقوتي وشبابي... حتى أنال المرأة الوحيدة التي أحببت حباً صادقاً، والتي أريد أن أتخذها زوجة لي وأن تبقى بجانبي في كل دقيقة من حياتي. والآن يا حبيبتي هل عرفت كم أحبك؟ وكم أمقت الصفات التي أطلقتها عليّ؟ ولذا أردت، بل

أجبرتك، أن تعترفي لي في تلك الليلة بأنك تحبينني.

وأجعلك ترجعين أيضاً الى عقلك باستحالة الزواج من أ

فقالت له وهي في حيرة:

«هل تنوي الزواج بي؟»

فضحك عالياً وقال:

«هل أصرّ على الزواج بك. وستضعين خاتمي في أصبعك وتحملين أطفالي. أما عن حريتي فتصبح عظيمة إذا كانت مشتركة بيننا. وعندما أجوب الصحارى في المستقبل ستترك وراءنا أثرين لأقدامنا على الرمال».